مختصر تفسير الطبري

مقرونًا بتعليقات الأئمة ابن تيمية
وابن القيم والشنقيطي وغيرهم

حُقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع

٢٨٤٦/٢٠٢٠م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-6761-45-2

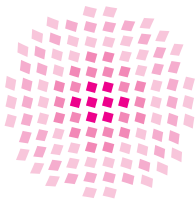

دار الأمل

صناعةُ فكر ومنارةُ وعي

Daralamal2014@gmail.com

الجـــــوال : 6 0100028216

مختصر تفسير الطبري

مقرونًا بتعليقات الأئمة ابن تيمية

وابن القيم والشنقيطي وغيرهم

إعداد

مركز الذكر الحكيم

لخدمة القرآن الكريم وعلومه

دار الأمل

صناعةُ فكر ومنارةُ وعي

Daralamal2014@gmail.com

الجـــــوال : 6 0100028216

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أولى ما تشتغل به العقول والقلوب، النظر والتدبر في كتاب الله، والعكوف عليه قراءة وتأملًا، والتأدب بآدابه وتعاليمه، والتحاكم إلى أوامره ونواهيه، والسعي وراء معانيه وكنوزه ودرره، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فالوقوف على هذا المنهل العذب، والمعين الصافي، والنور المبين خير ما تُقضى به الأعمار، وتُنفق فيه الأزمان والساعات.

ولما كان ولوج هذا الطريق موقوفًا على معرفة تفسيره وأحكامه، كان لزامًا على العاقل اللبيب أن يجتهد في تحصيل هذا العلم الشريف، ولا يَحصل ذلك على الوجه

الأكمل إلا بتلقِّيه من مظانِّه ومصادره الموثوقة، ومن علمائه الربانيين المشهود لهم بالفضل والسبق.

فإن قيل: فما أصح التفاسير، وأعلاها قدرًا؟

قلت: قال الإمام ابن خزيمة: «ما أعلَمُ على أديم الأرض أعلمَ من محمد بن جرير».

وقال الإمام النووى: «أجمعت الأُمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «هو من أجَلِّ التفاسير، وأعظمها قدرًا».

لذلك كان من واجب النصيحة لأنفسنا وللمسلمين مطالعةُ ومدارسة تفسير كبير المفسرين، وشيخهم المقدَّم الإمام محمد بن جرير الطبري: «جامع البيان عن تفسير آي القرآن»، والعكوفُ على نفائسه وكنوزه.

لذلك رأى مركز الذكر الحكيم أن يولي هذا التفسير اهتمامه؛ إظهارًا لعِلم هذا العَلَم، ونشرًا لتفسير سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، وتيسيرًا لطالبي علم التفسير؛ فكانت باكورة هذا العمل خروج هذا المختصر، والله الموفق.

منهج المختصر

۞ الإبقاء قدر الإمكان على عبارة الإمام الطبري في تفسير الآيات، إلا إذا تعذر ذلك؛ لصعوبة العبارة أو لغرابتها، فاستعيض عن ذلك بصياغة «التفسير الميسر» أو غيره من التفاسير، مع الإبقاء على مضمون كلام الإمام.

۞ رُوعيَ في المتن تفسيرُ الإمام، المتضمنُ لترجيحه، دون ذكر الخلاف، ودون ذكر شيء آخَرَ؛ حفاظًا على الغرض العامِّ من المختصر، وهو: تجريد كلام الإمام في التفسير، وتيسيره لطالبيه.

۞ تضمنت الحاشية ذكر الخلاف التفسيري -إذا وُجد-، وأقوال المفسرين، واختيار الإمام، مع بيان وجه ترجيحه، دون ذكر الروايات التفسيرية المسنَدة إلى أصحابها؛ مراعاة للاختصار.

۞ كما تضمنت أقوال المحققين وتعليقاتهم؛ أمثال الأئمة: ابن تيميَّة، وابن القيم، وابن عطية صاحب «المحرر الوجيز»، والشنقيطي، وغيرهم من المفسرين والعلماء.

سورة الملك (١)

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: تعاظم وتعالى (٢) الذي بيده مُلك الدنيا والآخرة وسلطانهما، نافذٌ فيهما أمره وقضاؤه، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة، لا يمنعه من فعله مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: أمات مَن شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم؛ ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع (٣).

---

(١) قال ابن عطية: وهي مكية بإجماع.

(٢) قال ابن القيم: وأما البركة: فكذلك نوعان أيضًا؛ **أحدهما:** بركة هي فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله، كما قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما (صفته) تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه، مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى)، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها...

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان؛ لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل؛ فإنه فعل لازم، مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه. بدائع الفوائد (٢/ ١٨٦).

(٣) قال شيخ الإسلام: قَالَ الفضيل بن عِيَاض فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قَالَ: أخلصه وأصوبه.=

وهو القوي الشديد انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، الغفور ذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ أي: خلقها طبقًا فوق طبق، بعضها فوق بعض. ما ترى في خلق الرحمن لا في سماء ولا في أرض، ولا في غير ذلك من اختلاف. فرُدَّ البصر، هل ترى فيه من صدوع أو شقوق؟

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: رد البصر يا ابن آدم كرتين، مرة بعد أخرى، يرجع إليك بصرك صاغرًا مبعدًا، وهو كليل متعب[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: زين السماء بالنجوم، وجعلها مصابيح لإضاءته. وجعلنا المصابيح

= فَقيل لَهُ: يَا أَبَا عَليّ، مَا أخلصه وأصوبه؟ فَقَالَ: إِن الْعَمَل إِذا كَانَ خَالِصًا وَلم يكن صَوَابًا لم يُقبل، وَإِذا كَانَ صَوَابًا وَلم يكن خَالِصًا لم يُقبل، حَتَّى يكون خَالِصًا صَوَابًا، والخالص أَن يكون لله، وَالصَّوَاب أَن يكون على السُّنة. مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٤).

(١) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك:٤] أي: كَرَّاتٍ؛ بدليل قوله: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: كليلٌ، ولا يصيبُه ذلك إلا بعد كَرَّات، ومثلُه. لَبَّيْك وسَعْدَيْك وحنانَيْكَ. الدر المصون (٦/ ١١٤). وأَصْلُ الحَسْرِ الْكَشْفُ، يُقَالُ: حَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ أَيْ كَشَفَ، وَالحَسْرَةُ: انْكِشَافٌ عَنْ حَالِ النَّدَامَةِ، وَالحُسُورُ: الْإِعْيَاءُ؛ لِأَنَّهُ انْكِشَافُ الحَالِ عَمَّا أَوْجَبَهُ طُولُ السَّفَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] وَالمِحْسَرَةُ: المِكْنَسَةُ؛ لِأَنَّهَا تَكْشِفُ عَنِ الْأَرْضِ، وَالطَّيْرُ تَنْحَسِرُ؛ لِأَنَّهَا تَنْكَشِفُ بِذَهَابِ الرِّيشِ. تفسير الرازي (٤/ ١٨٢).

التي زيَّنَّا بها السماء الدنيا رجومًا للشياطين تُرجَم بها[١]. وأعتدنا للشياطين في الآخرة عذاب السعير، تسعر عليهم فتسجر وتحمى.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وللذين كفروا بربهم الذي خلقهم في الدنيا عذاب جهنم في الآخرة، وبئس المصير عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: إذا ألقي الكافرون في جهنم سمعوا لها ﴿شَهِيقًا﴾ وهو: الصوت الذي يخرج من الجوف بشدة كصوت الحمار، وهي تغلي كما يغلي القِدر.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: تكاد جهنم تتفرق وتتقطع من الغيظ على أهلها. كلما أُلقي في جهنم جماعة سألهم خزنتها: ألم يأتكم في الدنيا نذير ينذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه[٢]؟ فأجابهم المساكين: بلى، قد

---

(١) عن قتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: إن الله جل ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدَى بها؛ فمن يتأول منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

(٢) دَلَّت آيَاتٌ كثيرة فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ على أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْإِعْذَارِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الْآيَةَ [٦٧/ ٨، ٩].
وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَفْوَاجِ الْمُلْقَيْنَ فِي النَّارِ.
قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ» فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَكُلَّمَا» تَدُلُّ عَلَى عُمُومِ أَزْمَانِ الْإِلْقَاءِ؛ فَتَعُمُّ الْمُلْقَينَ. أضواء البيان (٣/ ٦٦) بتصرف يسير.

جاءنا نذير ينذرنا هذا، فكذبناه وقلنا له: ما نزل الله من شيء، إن أنتم إلا في ذهاب عن الحق بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وقال الفوج الذي أُلقي في النار للخزنة: لو كنا في الدنيا نسمع أو نعقل من النذر ما جاؤونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه؛ ما كنا اليوم في أهل النار، فأقروا بذنبهم، فبُعدًا لأهل النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إِنَّ الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ لَمْ يَرَوْه، لَهُمْ عَفْوٌ مِنَ اللهِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَثَوَابٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ عَلَى خَشْيَتِهِمْ إِيَّاهُ بِالْغَيْبِ جَزِيلٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: وَأَخْفُوا قَوْلَكُمْ وَكَلَامَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَوْ أَعْلِنُوهُ وَأَظْهِرُوهُ؛ إِنَّهُ ذُو عِلْمٍ بِضَمَائِرِ الصُّدُورِ الَّتِي لَمْ يُتَكَلَّمْ بِهَا، فَكَيْفَ بِمَا نُطِقَ بِهِ وَتُكُلِّمَ بِهِ، أُخْفِيَ ذَلِكَ أَوْ أُعْلِنَ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ تَخْفَ عَلَيْهِ ضَمَائِرُ الصُّدُورِ فَغَيْرُهَا أَحْرَى أَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: أَلَا يَعْلَمُ الرَّبُّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَنْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ؟ وكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ خَلْقُهُ الَّذِي خَلَقَ؟! وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعِبَادِهِ، الخَبِيرُ بِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ[1]، اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ سَهْلًا، سَهَّلَهَا لَكُمْ فَامْشُوا فِي نَوَاحِيهَا

(١) قال شيخ الإسلام: لَطِيفٌ يُدْرِكُ الدَّقِيقَ، خَبِيرٌ يُدْرِكُ الخَفِيَّ. مجموع الفتاوى (١٦/ ٦٠).

وَجَوَانِبِهَا[١]، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ لَكُمْ مِنْ مَنَاكِبِ الْأَرْضِ، وَإِلَى اللهِ نَشْرُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ.

❁ **قوله تعالى:** ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هي تَذْهَبُ بِكُمْ وَتَجِيءُ وَتَضْطَرِبُ[٢].

❁ **قوله تعالى:** ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ -وَهُوَ اللهُ- أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكم الحجارة الصغيرة؟ فَسَتَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْكَفَرَةُ كَيْفَ عَاقِبَةُ نَذِيرِي لَكُمْ.

❁ **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: ولقد كذَّب الذين كانوا قَبْلُ كفارًا (كقوم نوح وعاد وثمود) رُسُلَهُم، فكيف كان إنكاري عليهم، وتغييري ما بهم من نعمة، بإنزال العذاب بهم وإهلاكهم؟!

❁ **قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ أي: أَوَ لَمْ يَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ أَجْنِحَتَهُنَّ،

---

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي مَعْنَى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾:
فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنَاكِبُهَا: جِبَالُهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: مَنَاكِبُهَا أَطْرَافُهَا وَنَوَاحِيهَا.
ورجَّح الإمام الطبري القول الثاني قائلًا: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَامْشُوا فِي نَوَاحِيهَا وَجَوَانِبِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ نَوَاحِيهَا نَظِيرُ مَنَاكِبِ الْإِنْسَانِ الَّتِي هِيَ مِنْ أطرافه. جامع البيان (٢٣/ ١٢٩).

(٢) قال شيخ الاسلام: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أراد: فوق السماء، كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] يعني: على جذوع النخل، وقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة:٢] يعني على الأرض. وكل ما علا فهو سماء، والعرش على السموات؛ فمعنى الآية: أأمنتم من على العرش، كما صرح به سائر الآيات. «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٦٨).

وَيَقْبِضْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ أَحْيَانًا، مَا يُمْسِكُ الطَّيْرَ الصَّافَّاتِ فَوْقَكُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ؛ فَلَهُمْ بِذَلِكَ مُذَكِّرٌ إِنْ ذُكِّرُوا، وَمُعْتَبَرٌ إِنِ اعْتَبَرُوا، يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّ رَبَّهُمْ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، ذُو بَصَرٍ وَخِبْرَةٍ، لَا يَدْخُلُ تَدْبِيرَهُ خَلَلٌ، وَلَا يُرَى فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي: مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِهِ، يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا، فَيَدْفَعُ عَنْكُمْ مَا أَرَادَ بِكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! مَا الْكَافِرُونَ بِاللهِ إِلَّا فِي غُرُورٍ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَأَنَّهَا تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: أَمْ من هَذَا الَّذِي يُطْعِمُكُمْ وَيَسْقِيكُمْ، وَيَأْتِي بِأَقْوَاتِكُمْ إِنْ أَمْسَكَ بِكُمْ رِزْقَهُ الَّذِي يَرْزُقُهُ عَنْكُمْ؟! بَلْ تَمَادَى الكفار فِي طُغْيَانٍ وَنُفُورٍ عَنِ الحَقِّ وَاسْتِكْبَارٍ(١).

---

(١) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: فَصْلٌ فِي وُجُوبِ اخْتِصَاصِ الخَالِقِ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ: فَلَا يُعْمَلُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُرْجَى إِلَّا هُوَ، هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي ابْتَدَأَكَ بِخَلْقِكَ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْكَ بِنَفْسِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ وَمَشِيئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مِنْكَ أَصْلًا؛ وَمَا فَعَلَ بِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. ثُمَّ إِذَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ فِي جَلْبِ رِزْقٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ فَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالرِّزْقِ، لَا يَأْتِي بِهِ غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي يَدْفَعُ الضَّرَرَ لَا يَدْفَعُهُ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ، وَيُحْسِنُ إِلَيْكَ بِنَفْسِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُوجَبُ مَا تَسَمَّى بِهِ، وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؛ إِذْ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْوَدُودُ الْمَجِيدُ، وَهُوَ قَادِرٌ بِنَفْسِهِ، وَقُدْرَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَكَذَلِكَ رَحْمَتُهُ وَعِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى خَلْقِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، بَلْ هُوَ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

وقال: والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وقال الخليل عليه السلام: =

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: أفمن يمشي منكَّسًا على وجهه لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، أشد استقامة على الطريق وأهدى، أَمَّن يمشي مستويًا منتصب القمة سالمًا على طريق واضح لا اعوجاج فيه؟ وهذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: اللهُ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ فَخَلَقَكُمْ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ تَسْمَعُونَ بِهِ، وَالْأَبْصَارَ تُبْصِرُونَ بِهَا، وَالْأَفْئِدَةَ تَعْقِلُونَ بِهَا، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْكُمْ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ. اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ وحْدَه تُجمعون مِنْ قُبُورِكُمْ لِمَوْقِفِ الحِسَابِ. وَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: مَتَى يَكُونُ مَا تَعِدُنَا مِنَ الحَشْرِ إِلَى اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي وَعْدِكُمْ ؟ فقل لهم: إن العلم بوقت قيام الساعة اختصَّ الله به؛ وإنما أنا نذير لكم، أخوِّفكم عاقبة كفركم، وأبيِّن لكم ما أمرني الله ببيانه غاية البيان.

=﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية [البقرة:١٢٦]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل ترزقون وتُنصَرون إلا بضعفائكم؛ بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟**». مجموع الفتاوى(١/ ٣٧).

(١) عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ [الملك:٢٢] «هُوَ الْكَافِرُ أَكَبَّ عَلَى مَعَاصِي اللهِ فِي الدُّنْيَا، حَشَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِ». فَقِيلَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يَحْشُرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وجهه». جامع البيان (٢٣/ ١٣٣). وعلى هذا القول فهو حقيقة يقع يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك:٢٧] أي: فَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَذَابَ اللهِ قَرِيبًا، وَعَايَنُوهُ، سَاءَ اللهُ بِذَلِكَ وُجُوهَ الْكَافِرِينَ، وَقِيل: هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تطلبون تعجيله في الدنيا(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ: أَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ فَأَمَاتَنِي وَمَنْ مَعِيَ، أَوْ رَحِمَنَا فَأَخَّرَ فِي آجَالِنَا؛ فَمَنْ يُنجي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ مُوجِعٍ مُؤْلِمٍ؟! وَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ؛ فَلَا حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ تَسْتَعْجِلُوا قِيَامَ السَّاعَةِ، وَنُزُولَ الْعَذَابِ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قل: الله هو الرحمن صدَّقنا به، وعمِلْنا بشرعه، وأطعناه، وعليه وحْدَه اعتمدنا في كل أمورنا، فستعلمون -أيها الكافرون- إذا نزل العذاب: أيُّ الفريقين منا ومنكم في بُعْدٍ واضح عن صراط الله المستقيم.

---

(١) في قَوْلِهِ: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: قَالَ الْفَرَّاءُ: يُرِيدُ تَدَّعُونَ مِنَ الدُّعَاءِ، أَيْ: تَطْلُبُونَ وَتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، وَتَدْعُونَ وَتَدَّعُونَ وَاحِدٌ فِي اللُّغَةِ؛ مِثْلُ تَذْكُرُونَ وَتَذَّكَّرُونَ، وَتَدْخَرُونَ وَتَدَّخِرُونَ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ مِنَ الدَّعْوَى، مَعْنَاهُ: هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُبْطِلُونَهُ أَيْ: تَدَّعُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ لَا يَأْتِيكُمْ، أو هذا الذي كنتم بسببه تدعون أَنَّكُمْ لَا تُبْعَثُونَ.

وقرأ العامَّةُ من القراء ﴿تَدَّعُونَ﴾ على تشديدِ الدالِ مفتوحةً.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والضحاك ويعقوبُ وأبو زيدٍ وابنُ أبي عبلةَ ونافعٌ في روايةِ الأصمعيِّ بسكونِ الدالِ، وهي مؤيِّدَةٌ للقولِ: أنَّها من الدعاء، في قراءةِ العامَّة. تفسير الرازي(٣٠/ ٥٩٧)، الدر المصون (١٠/ ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: أَرَأَيْتم إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَائِرًا لَا تَنَالُهُ الدِّلَاءُ؛ فَمَنْ يَجِيئُكُمْ بِمَاءٍ جارٍ على وجه الأرض تَرَاهُ الْعُيُونُ ظَاهِرًا[1]؟!

(١) قَوْلُهُ: ﴿غَوْرًا﴾ أَيْ: غَائِرًا ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ، يُقَالُ: غَارَ الْمَاءُ يَغُورُ غَوْرًا، إِذَا نَضَبَ وذهب في الأرض، والغور هاهنا بِمَعْنَى الْغَائِرِ، سُمِّيَ بِالْمَصْدَرِ، كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ عَدْلٌ وَرِضًا وَالْمَعِينُ: الظَّاهِرُ الَّذِي تَرَاهُ الْعُيُونُ، فَهُوَ مِنْ مَفْعُولِ الْعَيْنِ، كَمَبِيعٍ.
وَقِيلَ: الْمَعِينُ الْجَارِي مِنَ الْعُيُونِ، مِنَ الْإِمْعَانِ فِي الْجَرْيِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مُمْعِنٌ فِي الْجَرْيِ. تفسير الرازي (٣٠/ ٥٩٧).

سُورَةُ القَلَمِ

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ أي: (ن) حرف من حروف الهجاء[(١)]،

(١) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي قَوْلِهِ: ﴿نٓ﴾ [القلم:١]؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الحُوتُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَرَضُونَ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿نٓ﴾ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الرَّحْمَنِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿نٓ﴾ الدَّوَاةُ، ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾: الْقَلَمُ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿نٓ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿نٓ﴾ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ السُّورَةِ. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ.

ولم يبين الإمام اختياره في هذ الموضع، لكنه أحال على اختياره في المواضع السابقة، ففي تفسيره لقوله: ﴿الٓمٓ﴾ أول البقرة أورد عدة أقوال في معناها، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ فَوَاتِحُ يَفْتَحُ اللهُ بِهَا الْقُرْآنَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمٌ لِلسُّورَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ، وَهِيَ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ مِنْ أَسْمَاءٍ وَأَفْعَالٍ، كُلُّ حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَعْنًى غَيْرِ مَعْنَى الحَرْفِ الْآخَرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفُ هِجَاءٍ مَوْضُوعٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ يَشْتَمِلُ كُلُّ حَرْفٍ مِنْهَا عَلَى مَعَانٍ شَتَّى مُخْتَلِفَةٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة:١] قَالَ: هَذِهِ الْأَحْرُفُ مِنَ التِّسْعَةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا، دَارَتْ فِيهَا الْأَلْسُنُ كُلُّهَا، لَيْسَ مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا وَهُوَ مِفْتَاحُ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَلَيْسَ مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا وَهُوَ فِي آلَائِهِ وَبَلَائِهِ، وَلَيْسَ مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا وَهُوَ مُدَّةُ قَوْمٍ وَآجَالُهُمْ.... قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ مِنْ حِسَابِ الجُمَّلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلِّ كِتَابٍ سِرٌّ، وَسِرُّ الْقُرْآنِ فَوَاتِحُهُ».

ثم قال الإمام الطبري: «وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي تَأْوِيلِ مَفَاتِحِ السُّوَرِ الَّتِي هِيَ حُرُوفُ الْمُعْجَمِ: أَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَهَا حُرُوفًا مُقَطَّعَةً وَلَمْ يَصِلْ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ فَيَجْعَلَهَا كَسَائِرِ الْكَلَامِ الْمُتَّصِلِ الحُرُوفَ؛ لِأَنَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ أَرَادَ بِلَفْظِهِ الدَّلَالَةَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ لَا عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَإِنْ كَانَ الرَّبِيعُ قَدِ اقْتَصَرَ بِهِ عَلَى مَعَانٍ ثَلَاثَةٍ دُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا.

وَالصَّوَابُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ يَحْوِي مَا قَالَهُ الرَّبِيعُ وَمَا قَالَهُ سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ غَيْرُهُ فِيهِ... فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَرْفٌ وَاحِدٌ شَامِلًا الدَّلَالَةَ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؟ قِيلَ: كَمَا جَازَ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَقَوْلِهِمْ لِلْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ: أُمَّةٌ، وَلِلْحِينِ مِنَ الزَّمَانِ: أُمَّةٌ، وَلِلرَّجُلِ الْمُتَعَبِّدِ الْمُطِيعِ للهِ: أُمَّةٌ، وَلِلدِّينِ وَالمِلَّةِ: أُمَّةٌ. وَكَقَوْلِهِمْ لِلْجَزَاءِ وَالْقِصَاصِ: =

= دِينٌ، وَلِلسُّلْطَانِ وَالطَّاعَةِ: دِينٌ، وَلِلتَّذَلُّلِ: دِينٌ، وَلِلْحِسَابِ: دِينٌ؛ فِي أَشْبَاهٍ لِذَلِكَ كَثِيرَةٍ يَطُولُ الْكِتَابُ بِإِحْصَائِهَا مِمَّا يَكُونُ مِنَ الْكَلَامِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ».

والذي يظهر من كلام الإمام الطبري -كما حرره الدكتور محمد سليمان في كتابه الماتع «اختلاف السلف في التفسير»- (وإن لم يكن الظهور الكامل) أن هذه الحروف ليس لها معنى وضعي في لغة العرب، وما ذكره السلف من أنها أسماء الله أو أسماء للسور أو أسماء القرآن ونحوها تمثيلات، باعتبار أن تركيب كل كلام لا يكون إلا من هذه الحروف، ويكون المقصود بمجيء هذه الحروف على هذا النحو: التنبيه على إعجاز القرآن، وأن العرب عاجزون عن معارضته، مع كون كل كلام لا يكون إلا من هذه الحروف. اختلاف السلف في التفسير (ص٣١٦).

قال الراغب الأصفهاني: «وما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذه الحروف اختصار من كلمات، فمعنى ﴿الٓمٓ﴾: أنا الله أعلم، ومعنى ﴿الٓمٓرٰ﴾ أنا الله أعلم وأرى»...

بيانه: ما ذكره بعض المفسرين أن قصده بهذا التفسير، ليس أن هذه الحروف مختصة بهذه المعاني دون غيرها.

وإنما أشار بذلك إلى ما فيه الألف واللام والميم من الكلمات؛ تنبيهًا أن هذه الحروف منبع هذه الأسماء، ولو قال: إن اللام يدل على «اللعن»، والميم على «المكر» لكان يحمل، ولكن تحرى في المثال اللفظ الأحسن، كأنه قال: هذه الحروف هي أجزاء ذلك الكتاب». تفسير الراغب(١/ ٧٣) وينظر في تحرير هذه المسالة (اختلاف السلف في التفسير) (ص٢٩٦-٣١٦).

قال الإمام ابن القيم: الصحيح أن ﴿نٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن؛ إما مقسمًا به، وإما مخبرًا عنه، ما خلا سورتين: سورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿نٓ﴾ كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، ﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعِظَم قدرها وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرَّفهم بواسطتها نفسه وأسماءَه وصفاتِه وأفعالَه وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرَّفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح». التبيان (ص٢٠٣).

قال الشيخ ابن عثيمين -مشيرًا إلى صحة هذا القول-: «هي حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: ألِف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء...؛ فهي كذلك حروف هجائية». تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين (١/ ٢٢).

أقسم الله بالقلم[١] المأمور بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة، وأقسم بما سطر فيه، ما أنت -أيها الرسول- بسبب نعمة الله عليك بالنبوة والرسالة بضعيف العقل، ولا سفيه الرأي، وإن لك على ما تلقاه من شدائدَ على تبليغ الرسالة لَثوابًا عظيمًا غير منقوص ولا مقطوع، وإنك -أيها الرسول- لعلى خلق عظيم، وهو ما اشتمل عليه القرآن من مكارم الأخلاق؛ فقد كان امتثال القرآن سجية له، يأتمر بأمره، وينتهي عما ينهى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: فَسَتَرَى يَا مُحَمَّدُ، وَيَرَى مُشْرِكُو قَوْمِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مَجْنُونًا: بأيكم الجنون: فَرِيقِكَ أَوْ فَرِيقِهِمْ[٢].

(١) رجح الإمام الطبري أن القلم هنا قلم مخصوص، فقال: وَأَمَّا الْقَلَمُ: فَهُوَ الْقَلَمُ الْمَعْرُوفُ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِيَ أَقْسَمَ بِهِ رَبُّنَا مِنَ الْأَقْلَامِ: الْقَلَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ، فَأَمَرَهُ فَجَرَى بِكِتَابَةِ جَمِيعِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
ورجح الإمام ابن كثير أن المقصود جنس القلم، فقال: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾: الظَّاهِرُ أَنَّهُ جِنْسُ الْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٣-٥]، فَهُوَ قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى وَتَنْبِيهٌ لِخَلْقِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وقَتَادَةُ: يَعْنِي وَمَا يَكْتُبُونَ. ينظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠٥)، موسوعة التفسير بالمأثور (٢٢/ ٩٥).

(٢) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي قوله: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِأَيِّكُمُ الْمَجْنُونُ. قال الإمام: كَأَنَّهُ وَجَّهَ مَعْنَى الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ إِلَى مَعْنَى «فِي». وَإِذَا وُجِّهَتِ الْبَاءُ إِلَى مَعْنَى فِي كَانَ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَيُبْصِرُونَ فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ، الْمَجْنُونُ فِي فَرِيقِكَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ فَرِيقِهِمْ.
وَقَالَ آخَرُونَ: بِأَيِّكُمُ الْجُنُونُ؛ وَكَأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ وَجَّهُوا الْمَفْتُونَ إِلَى مَعْنَى الْفِتْنَةِ أَوِ الْفُتُونِ، كَمَا قِيلَ: لَيْسَ لَهُ مَعْقُولٌ وَلَا مَعْقُودٌ، أَيْ بِمَعْنَى: لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا عَقْدُ رَأْيٍ، فَكَذَلِكَ وُضِعَ الْمَفْتُونُ مَوْضِعَ الْفُتُونِ.
وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَيُّكُمْ أَوْلَى بِالشَّيْطَانِ؛ فَالْبَاءُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ زِيَادَةٌ دُخُولُهَا وَخُرُوجُهَا سَوَاءٌ.
ورجح الإمام القول بعدم زيادة (الباء) والإبقاء على معناها، فقال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: بِأَيِّكُمُ الْجُنُونُ، وَوَجَّهَ الْمَفْتُونَ إِلَى الْفُتُونِ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَظْهَرُ مَعَانِي الْكَلَامِ، إِذَا لَمْ يَنْوِ إِسْقَاطَ الْبَاءِ، وَجَعَلْنَا لِدُخُولِهَا وَجْهًا مَفْهُومًا. وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ لَا مَعْنَى لَهُ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٤). =

❁ **قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ؛ كَضَلَالِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ عَنْ دِينِ اللهِ، وَطَرِيقِ الهُدى، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى، فَاتَّبَعَ الحَقَّ، وَأَقَرَّ بِهِ، كَمَا اهْتَدَيْتَ أَنْتَ فَاتَّبَعْتَ الحَقَّ.

❁ **قوله تعالى:** ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي: فاثبت على ما أنت عليه -أيها الرسول- من مخالفة المكذبين، ولا تطعهم. تمنَّوا وأحبوا لو تلاينهم، وتصانعهم على بعض ما هم عليه، فيلينون لك[(١)].

❁ **قوله تعالى:** ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ أي: وَلَا تُطِعْ كُلَّ مُكثر لِلْحَلِفِ بِالْبَاطِلِ، حقير مُغْتَابٍ لِلنَّاسِ، يَأْكُلُ لُحُومَهُمْ، يَنْقُلُ حَدِيثَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ على وجه الإفساد.

❁ **قوله تعالى:** ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أي: شديد

= وخالفه الإمام ابن كثير؛ فرأى أن ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ اسم مفعول على بابه، وليس مصدرًا، فقال: وَمَعْنَى الْمَفْتُونِ ظَاهِرٌ أَيِ: الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ عَنِ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ، وَإِنَّمَا دَخَلَتِ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ ﴿ بِأَيِّيكُمُ ﴾ لِتَدُلَّ عَلَى تَضْمِينِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وَتَقْدِيرُهُ: فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ، أَوْ فَسَتُخْبَرُ وَيُخْبَرُونَ، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي قوله: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَدَّ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَوْ تَكْفُرُ بِاللهِ يَا مُحَمَّدُ فَيَكْفُرُونَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَدُّوا لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ، أَوْ تَلِينُ فِي دِينِكَ فَيَلِينُونَ فِي دِينِهِمْ.

ورجح الإمام هذا القول، فقال: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَدَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ لَوْ تَلِينُ لَهُمْ فِي دِينِكَ بِإِجَابَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الرُّكُونِ إِلَى آلِهَتِهِمْ، فَيَلِينُونَ لَكَ فِي عِبَادَتِكَ إِلَهَكَ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الدُّهْنِ؛ شَبَّهَ التَّلْيِينَ فِي الْقَوْلِ بِتَلْيِينِ الدُّهْنِ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٧).

المنع للخير، متجاوز حدَّه في العدوان على الناس وتناول المحرمات، كثير الآثام[١]، شديد في كفره، فاحش لئيم، منسوب إلى غير أبيه[٢].

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ومن أجل أنه كان صاحب مال وبنين طغى وتكبر عن الحق، فإذا قرأ عليه أحد آيات القرآن كذَّب بها، وقال: هذا أباطيل الأولين وخرافاتهم. وهذه الآيات وإن نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة، إلا أن فيها تحذيرًا للمسلم من موافقة من اتصف بهذه الصفات الذميمة.

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أي: سَنُبَيِّنُ أَمْرَهُ بَيَانًا وَاضِحًا حَتَّى يَعْرِفُوهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ، كَمَا لَا تَخْفَى العلامة عَلَى الأنف[٣] عقوبة له.

---

(١) تأمل حكمة الترتيب بين هذه الخصال، تجده في غاية المناسبة؛ فإن الهمّازَ هو العيَّاب، وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النميمة، فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان، عن شخص إلى شخص. فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس، وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبةٍ أبعدَ في الإيذاء، وهو المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء، وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين. وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها، وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: ﴿أَثِيمٍ﴾ وهو وصف جامع لأنواع الشرور؛ فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً.
جاء في بدائع الفوائد: وأما تقدم ﴿هَمَّازٍ﴾ على ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ فبالرتبة؛ لأن المشي مرتب على القعود في المكان، والهماز هو العيّاب، وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم. وأما تقدم ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ على ﴿مُعْتَدٍ﴾ فبالرتبة أيضًا؛ لأن المناع يمنع من نفسه، والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره. لمسات بيانية (ص٤٥٣). فاضل السامرائي.

(٢) ذكر الإمام أقوالًا أُخَر في معنى «الزنيم»، ولم يعلق عليها؛ فقيل: هُوَ الَّذِي لَهُ زَنَمَةٌ كَزَنَمَةِ الشَّاةِ، وَقِيل: هُوَ الْمُرِيبُ الَّذِي يُعْرَفُ بِالشَّرِّ، وَقِيل: هُوَ الظَّلُومُ، وَقِيل: هُوَ الْحِلْفُ الجَافِي، وَقِيل: هُوَ عَلَامَةُ الْكُفْرِ، وَقِيل: هُوَ الَّذِي يُعْرَفُ بِاللُّؤْمِ، وَقِيل: هُوَ الْفَاجِرُ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨).

(٣) **الْوَسْمُ:** أَثَرُ الْكَيَّةِ وَمَا يُشْبِهُهَا، وقَالَ الْمُبَرِّدُ: الخُرْطُومُ هاهنا الْأَنْفُ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا اللَّفْظَ عَلَى سَبِيلِ =

ليكون مفتضحًا أمام الناس[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: بَلَوْنَا مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، كَمَا امْتَحَنَّا أَصْحَابَ الْبُسْتَانِ إِذْ حَلَفُوا لَيَقطعن ثَمَرَهَا إِذَا أَصْبَحُوا، وَلَا يَقُولُونَ: إِنْ شَاءَ اللهُ.

قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: فَطَرَقَ جَنَّةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا طَارِقٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَهُمْ نائمون، فأصبحت جَنَّتُهُمْ مُحْتَرِقَةً[٢] سَوْدَاءَ كَسَوَادِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ[٣].

=الِاسْتِخْفَافِ بِهِ؛ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ أَعْضَاءِ النَّاسِ بِالْأَسْمَاءِ الْمَوْضُوعَةِ لِأَشْبَاهِ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَكُونُ اسْتِخْفَافًا، كَمَا يُعَبَّرُ عَنْ شِفَاهِ النَّاسِ بِالْمَشَافِرِ، وَعَنْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ بِالْأَظْلَافِ وَالْحَوَافِرِ. تفسير الرازي(٣٠/ ٦٠٦).

(١) اخْتَلَفَ المفسرون في قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: سَنَخْطِمُهُ بِالسَّيْفِ، فَنَجْعَلُ ذَلِكَ عَلَامَةً بَاقِيَةً، وَسِمَةً ثَابِتَةً فِيهِ مَا عَاشَ. وَقَالَ آخَرُونَ: سِيمَى عَلَى أَنْفِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ سَنُشِينُهُ شَيْنًا بَاقِيًا.

ورجحه الإمام، فقال: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عِنْدِي قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: سَنُبَيِّنُ أَمْرَهُ بَيَانًا وَاضِحًا حَتَّى يَعْرِفُوهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ، كَمَا لَا تَخْفَى السِّمَةُ عَلَى الْخُرْطُومِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَى ذَلِكَ: شَيْنٌ لَا يُفَارِقُهُ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ خُطِمَ بِالسَّيْفِ، فَجُمِعَ لَهُ مَعَ بَيَانِ عُيُوبِهِ لِلنَّاسِ الخَطْمُ بِالسَّيْفِ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٠)، موسوعة التفسير بالمأثور (٢٢/ ١٢٢).

(٢) قال ابن فارس: (صَرَمَ) الصَّادُ وَالرَّاءُ وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ الْقَطْعُ. مِنْ ذَلِكَ صُرْمُ الهِجْرَانِ. وَالصَّرِيمَةُ: الْعَزِيمَةُ عَلَى الشَّيْءِ،... فَأَمَّا الصَّرِيمُ فَيُقَالُ: إِنَّهُ اسْمُ الصُّبْحِ وَاسْمُ اللَّيْلِ. وَكَيْفَ كَانَ فَهُوَ مِنَ الْقِيَاسِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَصْرِمُ صَاحِبَهُ وَيَنْصَرِمُ عَنْهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم:٢٠]، يَقُولُ: احْتَرَقَتْ فاسودت كَاللَّيْلِ. فَهَذَا فِيمَنْ قَالَهُ إِنَّهُ اللَّيْلُ. وَأَمَّا الصُّبْحُ فَقَالَ بِشْرٌ:

فَبَاتَ يَقُولُ أَصْبِحْ لَيْلُ حَتَّى ... تَجَلَّى عَنْ صَرِيمَتِهِ الظَّلَامُ

وَالصَّرِيمُ: الرَّمْلُ يَنْقَطِعُ عَنِ الجَدَدِ وَالْأَرْضِ الصُّلْبَةِ. مقاييس اللغة (٣/ ٣٤٥).

(٣) ذكر الإمام الطبري أقوالًا في قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ولم يعلق عليها؛ فقَالَ بَعْضُهُمْ: عُنِيَ بِهِ اللَّيْلُ =

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: فَتَنَادَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَهُمْ أَصْحَابُ الجَنَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحُوا: أَنِ اغْدُوا عَلَى حرثكم إِنْ كُنْتُمْ حَاصِدِي زَرْعِكُمْ. فَمَضَوْا إِلَى حَرْثِهِمْ وَهُمْ يَتَسَارُّونَ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا يَدْخُلَنَّ جَنَّتَكُمُ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وساروا في أول النهار إلى حديقتهم على قصدهم السيِّئ في منع المساكين من ثمار الحديقة، وهم في غاية القدرة على تنفيذه في زعمهم[1].

=الْأَسْوَدُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَأَصْبَحَتْ جَنَّتُهُمْ مُحْتَرِقَةً سَوْدَاءَ كَسَوَادِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ الْبَهِيمِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: فَأَصْبَحَتْ كَأَرْضٍ تُدْعَى الصَّرِيمَ مَعْرُوفَةٍ بِهَذَا الِاسْمِ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٤).

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي مَعْنَى «الحَرْدِ»؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: عَلَى قُدْرَةٍ فِي أَنْفُسِهِمْ وَجِدٍّ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَغَدَوْا عَلَى أَمْرِهِمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ وقصدوه، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَغَدَوْا عَلَى فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: عَلَى غضب، وقال آخرون: على منع.

وعلق الإمام عليه بقوله: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ: وَغَدَوْا عَلَى مَنْعٍ. وَيُوَجِّهُهُ إِلَى أَنَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَارَدَتِ السَّنَةُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَطَرٌ، وَحَارَدَتِ النَّاقَةُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا لَبَنٌ... وَهَذَا قَوْلٌ لَا نَعْلَمُ لَهُ قَائِلًا مِنْ مُتَقَدِّمِي الْعِلْمِ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَنَا أَنْ يُتَعَدَّى مَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ؛ فَمَا صَحَّ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَحَدُ الْأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَعْنَى الحَرْدِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْقَصْدُ مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدْ حَرَدَ فُلَانٌ حَرْدَ فُلَانٍ: إِذَا قَصَدَ قَصْدَهُ؛ صَحَّ أَنَّ الَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾: وَغَدَوْا عَلَى أَمْرٍ قَدْ قَصَدُوهُ وَاعْتَمَدُوهُ، وَاسْتَسَرُّوهُ بَيْنَهُمْ، قَادِرِينَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهِمْ. تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٩).

قال شيخ الإسلام: الحَرْدُ فِيهِ مَعْنَى الْعَزْمِ الشَّدِيدِ؛ فَإِنَّ هَذَا اللَّفْظَ يَقْتَضِي هَذَا، وَحَرْدُ السَّنَةِ وَالنَّاقَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الشِّدَّةِ، وَكَذَلِكَ الحَنَقُ وَالْغَضَبُ فِيهِ شِدَّةٌ؛ فَكَانَ لَهُمْ عَزْمٌ شَدِيدٌ عَلَى أَخْذِهَا وَعَلَى حِرْمَانِ الْمَسَاكِينِ، وَغَدَوْا بِهَذَا الْعَزْمِ قَادِرِينَ، لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُعْجِزُهُمْ وَمَا يَمْنَعُهُمْ، لَكِنْ جَاءَهَا أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَبْطَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ. وَقِيلَ: الحَرْدُ هُوَ الْغَيْظُ وَالْغَضَبُ، وَاللهُ أَعْلَمُ. مجموع الفتاوى (٨/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: فَلَمَّا صَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ إِلَى جَنَّتِهِمْ، وَرَأَوْهَا مُحْتَرِقَةً، أَنْكَرُوهَا، وَشَكُّوا فِيهَا، هَلْ هِيَ جَنَّتُهُمْ أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِأَصْحَابِهِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُمْ قَدْ ضلوا طَرِيقَ جَنَّتِهِمْ. إِنَّا ضللنا طَرِيقَ جَنَّتِنَا، فَقَالَ مَنْ عَلِمَ أَنَّهَا جَنَّتُهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُخْطِئُوا الطَّرِيقَ: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ؛ حُرِمْنَا مَنْفَعَةَ جَنَّتِنَا بِذَهَابِ زرعها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: قال أعدلهم: ألم أقل لكم هلّا تستثنون وتقولون: إن شاء الله؟ قالوا بعد أن عادوا إلى رشدهم: تنزَّه الله ربنا عن الظلم فيما أصابنا، إنا كُنَّا ظَالِمِينَ فِي تَرْكِنَا الِاسْتِثْنَاءَ فِي قَسَمِنَا، وَعَزْمِنَا عَلَى تَرْكِ إِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ مِنْ ثَمَرِ جَنَّتِنَا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فأقبل بعضهم على بعض، يلوم كل منهم الآخر على تركهم الاستثناء، وعلى قصدهم السيِّئ، قالوا: يا ويلنا إنَّا كنا متجاوزين الحد في منعنا الفقراء، ومخالفة أمر الله، عسى ربنا أن يعطينا أفضل من حديقتنا؛ بسبب توبتنا، واعترافنا بخطيئتنا. إنا إلى ربنا وحْدَه راغبون، راجون العفو، طالبون الخير.

مثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهل الحديقة يكون عقابنا في الدنيا لكل مَن خالف أمر الله، وبخِل بما آتاه الله من النعم، فلم يؤدِّ حق الله فيها، ولَعذاب الآخرة أعظم وأشد مِن عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون أَنَّ عُقُوبَةَ اللهِ لِأَهْلِ الشِّرْكِ بِهِ أَكْبَرُ مِنْ عُقُوبَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ لَارْتَدَعُوا وَتَابُوا وَأَنَابُوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا عُقُوبَةَ اللهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، عِنْدَ رَبِّهِمْ بَسَاتِينَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ.

أَفَنَجْعَلُ أَيُّهَا النَّاسُ فِي كَرَامَتِي وَنِعْمَتِي فِي الْآخِرَةِ الَّذِينَ خَضَعُوا لِي بِالطَّاعَةِ، وَذَلُّوا لِي بِالْعُبُودِيَّةِ، وَخَشَعُوا لِأَمْرِي وَنَهْيِي، كَالْمُجْرِمِينَ الَّذِي اكْتَسَبُوا الْمَأْثَمَ، وَرَكِبُوا الْمَعَاصِي، وَخَالَفُوا أَمْرِي وَنَهْيِي؟! كَلَّا، مَا اللهُ بِفَاعِلٍ ذَلِكَ.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: أَتَجْعَلُونَ الْمُطِيعَ للهِ مِنْ عَبِيدِهِ، وَالْعَاصِي لَهُ مِنْهُمْ فِي كَرَامَتِهِ سَوَاءً؟! فَإِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللهِ، بَلِ الْمُطِيعُ لَهُ الْكَرَامَةُ الدَّائِمَةُ، وَالْعَاصِي لَهُ الْهَوَانُ الْبَاقِي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: أَلَكُمْ كِتَابٌ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَتَاكُمْ بِهِ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ بِأَنَّ لَكُمْ مَا تَشتهون، فَأَنْتُمْ تَدْرُسُونَ فِيهِ مَا تَقُولُونَ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: ألكم عهود منا موثقة بالأيمان لا نخرج منها، ولا نتحلل إلى يوم القيامة، أن لكم ما تحكمون به لأنفسكم كما تشاؤون؟!

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أي سَلْهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفل لهم مضمون الحكم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يُعطون في الآخرة أفضل مما يُعطى المؤمنون! أم لهم شركاء موافقون لهم في هذا الذي قالوه يكفلون لهم به ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم؟!

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: يوم يعظم الهول ويشتد الكرب(١)، ويكشف الرب عن ساقه الكريم التي لا يشبهها شيء عندما يأتي لفصل القضاء(٢). قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا؛ رياءً وسُمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا**» [رواه البخاري ومسلم].

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَدْعُونَهُمْ إِلَى الصلاة والسُّجُودِ لَهُ، وَهُمْ سَالِمُونَ، لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَائِلٌ.

---

(١) تقول العرب: قد شمرت الحرب عن ساقها؛ تريد الإخبار عن شدة الأمر وهول الموقف، قال الإمام ابن عطية: وأصل ذلك أنه من أراد الجِد في أمر يحاوله فإنه يكشف عن ساقه تشميرًا وجِدًّا.

(٢) اختلف العلماء في كون هذه الآية من آيات الصفات أم لا:

فقد ورد عن ابن عباس وأصحابه أنها القيامة تكشف عن هول وكرب عظيم.

وورد عن أبي سعيد الخدري وغيره أنَّ الساق هنا هي ساق الرب سبحانه؛ بدليل حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طَبَقًا واحدًا**».

واختار شيخ الإسلام أنها ليست من آيات الصفات، فقال: وَلَا رَيْبَ أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ مِنْ الصِّفَاتِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نَكِرَةٌ فِي الْإِثْبَاتِ، لَمْ يُضِفْهَا إلَى اللهِ، وَلَمْ يَقُلْ: عَنْ سَاقِهِ، فَمَعَ عَدَمِ التَّعْرِيفِ بِالْإِضَافَةِ لَا يَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ الصِّفَاتِ إلَّا بِدَلِيلٍ آخَرَ، وَمِثْلُ هَذَا لَيْسَ بِتَأْوِيلٍ؛ إنَّمَا التَّأْوِيلُ صَرْفُ الْآيَةِ عَنْ مَدْلُولِهَا وَمَفْهُومِهَا وَمَعْنَاهَا الْمَعْرُوفِ».

ويلاحظ هنا أن تفسير ابن عباس ليس خلاف منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنه لم ينكر ثبوت صفة الساق فيُحتجَّ بتفسيره هنا، وثبوت الساق عنده من خلال الحديث النبوي بلا ريب.

لكن المخالف يُنكِرُ صفة الساق ويؤولها، سواء في الحديث أو في الآية، وهذا الفرق بين المذهبين؛ فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن ذهب مذهبه لا ينكرون ساق الرب؛ لأنها ثابتة ثبوتًا واضحًا صريحًا في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ينظر شرح مقدمة في أصول التفسير (ص٤٧) د/ مساعد الطيار.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: فذرني -أيها الرسول- ومَن يكذِّب بهذا القرآن؛ فإن عليَّ جزاءهم والانتقام منهم، سنمدُّهم بالأموال والأولاد والنِّعَم؛ استدراجًا لهم من حيث لا يشعرون أنه سبب لإهلاكهم، وأُمهلهم وأُطيل أعمارهم؛ ليزدادوا إثمًا. إن كيدي بأهل الكفر قويٌّ شديد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: أتسألهم على تبليغ الدعوة أجرًا مقابل التبليغ؛ فهم يشعرون بحمل ثقيل من أجل ما يعطونك من الأجر، فلذا هم لا يؤمنون بك ولا يتابعونك على دعوتك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: أَعِنْدَهُمُ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ الَّذِي فِيهِ نَبَأُ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ مِنْهُ مَا فِيهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ أَفْضَلُ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: فاصبر يا رسولنا لحكم ربك فيك وفيهم، وامضِ في دعوتك، ولا يثني عزمك تكذيبهم ولا عنادهم ولا تكن كصاحب الحوت يونس بن متّى أي: في الضجر وعدم الصبر. إذ نادى وهو مملوء غمًّا فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولولا أن أدركته رحمة الله تعالى حيث ألهمه الله التوبة ووفقه لها؛ لطرح بالفضاء وهو مذموم، لكن لما تاب الله عليه طرح على ساحل البحر وهو غير مذموم بل محمود؛ فاصطفاه ربه فجعله من الكاملي الصلاح من الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وإن يكاد الكفار حين سمعوا القرآن ليصيبونك -أيها الرسول- بالعين[1]؛ لبغضهم إياك، لولا وقاية الله وحمايته لك، ويقولون: -حسب أهوائهم- إنه لمجنون وما القرآن إلا موعظة وتذكير للعالمين من الإنس والجن.

(١) قال ابن فارس: (زَلَقَ) الزَّاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَزَلُّحِ الشَّيْءِ عَنْ مَقَامِهِ. مِنْ ذَلِكَ الزَّلَقُ. وَيُقَالُ أَزْلَقَتِ الحَامِلُ، إِذَا أَزْلَقَتْ وَلَدَهَا... وَالمَزْلَقَةُ وَالمَزْلَقُ: المَوْضِعُ لَا يُثْبَتُ عَلَيْهِ. فَأَمَّا قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم:٥١]. فَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مِنْ حِدَّةِ نَظَرِهِم حَسَدًا، يَكَادُونَ يُنَحُّونَكَ عَنْ مَكَانِكَ. مقاييس اللغة (٣/ ٢١).

سورة الحاقة

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي: القيامة الواقعة حقًّا التي يتحقق فيها الوعد والوعيد، ما القيامة الواقعة حقًّا في صفتها وحالها؟ وأي شيء أدراك[١] -أيها الرسول- وعَرَّفك حقيقة القيامة، وصَوَّر لك هولها وشدتها؟[٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: كَذَّبَتْ ثَمُودُ قَوْمُ صَالِحٍ وَعَادٌ قَوْمُ هُودٍ بِالسَّاعَةِ الَّتِي تَقْرَعُ قُلُوبَ الْعِبَادِ فِيهَا بِهُجُومِهَا عَلَيْهِمْ[٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾

---

(١) قَالَ سفيان الثوري: مَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب:٦٣] فَلَمْ يُخْبِرْهُ، وَمَا كَانَ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ [الحاقة:٣] فَقَدْ أَخْبَرَهُ. تفسير الطبري (٢٣/ ٢٠٧).

(٢) قال الإمام ابن جزي: الحَاقَّةُ هي القيامة، ووزنها فاعلة وسميت الحاقة لأنها تحق، أي يصح وجودها، ولا ريب في وقوعها ولأنها حقت لكل أحد جزاء عمله، أو لأنها تبدئ حقائق الأمور. «مَا الحَاقَّةُ»: «ما» استفهامية، يراد بها التعظيم، وهي مبتدأ، وخبرها ما بعده، والجملة خبر «الحاقة».
وكان الأصل: الحاقة ما هي، ثم وضع الظاهر موضع المضمر، زيادة في التعظيم والتهويل، وكذلك «وما أدراك ما الحاقة» لفظه استفهام، والمراد به التعظيم والتهويل. تفسير ابن جزي (٢/ ٤٠٤).

(٣) قال ابن فارس: (قَرَعَ) الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ مُعْظَمُ الْبَابِ ضَرْبُ الشَّيْءِ.
يُقَالُ قَرَعْتُ الشَّيْءَ أَقْرَعُهُ: ضَرَبْتُهُ. وَمُقَارَعَةُ الْأَبْطَالِ: قَرْعُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. وَالْقَرِيعُ: الْفَحْلُ، لِأَنَّهُ يَقْرَعُ النَّاقَةَ. وَالْإِقْرَاعُ وَالْمُقَارَعَةُ: هِيَ الْمُسَاهَمَةُ. وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا شَيْءٌ كَأَنَّهُ يُضْرَبُ. وَقَارَعْتُ فُلَانًا فَقَرَعْتُهُ، أَيْ أَصَابَتْنِي الْقُرْعَةُ دُونَهُ.
وَالْقَارِعَةُ: الشَّدِيدَةُ مِنْ شَدَائِدِ الدَّهْرِ؛ وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُقْرِعُ النَّاسَ، أَيْ تَضْرِبُهُمْ بِشِدَّتِهَا. وَالْقَارِعَةُ: الْقِيَامَةُ، لِأَنَّهَا تَضْرِبُ وَتُصِيبُ النَّاسَ بِإِقْرَاعِهَا. مقاييس اللغة (٥/ ٧٢).

أي: فأما ثمود فَأُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ الشديدة[١].....

(١) قال الشيخ الشنقيطي: اعْلَمْ أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا عَبَّرَ عَنِ الهَلَاكِ الَّذِي أَهْلَكَ بِهِ ثَمُودَ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَذَكَرَهُ بَاسِمِ الصَّاعِقَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [٤١/ ١٣].

وَعَبَّرَ عَنْهُ أَيْضًا بِالصَّاعِقَةِ فِي سُورَةِ «الذَّارِيَاتِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [٥١/ ٤٣-٤٤].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالصَّيْحَةِ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ «هُودٍ» فِي إِهْلَاكِهِ ثَمُودَ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي «الحِجْرِ»: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [١٥/ ٨٢-٨٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي «الْقَمَرِ»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [٥٤/ ٣١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي «الْعَنْكَبُوتِ»: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يَعْنِي بِهِ ثَمُودَ المَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ قَبْلَهُ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ الْآيَةَ [٢٩/ ٣٨].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالرَّجْفَةِ فِي سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الْآيَةَ [٧/ ٧٧-٥١].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّدْمِيرِ فِي سُورَةِ «النَّمْلِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٢٧/ ٥١].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالطَّاغِيَةِ فِي «الحَاقَّةِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [٦٩/ ٥].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالدَّمْدَمَةِ فِي «الشَّمْسِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [٩١/ ١٤].

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْعَذَابِ فِي سُورَةِ «الشُّعَرَاءِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [٢٦/ ١٥٧-١٥٨].

وَمَعْنَى هَذِهِ الْعِبَارَاتِ كُلِّهَا رَاجِعٌ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً أَهْلَكَتْهُمْ، وَالصَّيْحَةُ الصَّوْتُ المُزْعِجُ المُهْلِكُ. =

التي جاوزت الحد في قوتها[١].

= وَالصَّاعِقَةُ تُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الصَّوْتِ الْمُزْعِجِ الْمُهْلِكِ، وَعَلَى النَّارِ الْمُحْرِقَةِ، وَعَلَيْهِمَا مَعًا، وَلِشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيْحَةِ وَهَوْلِهَا مِنْ فَوْقِهِمْ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، أَيْ تَحَرَّكَتْ حَرَكَةً قَوِيَّةً، فَاجْتَمَعَ فِيهَا أَنَّهَا صَيْحَةٌ وَصَاعِقَةٌ وَرَجْفَةٌ، وَكَوْنُ ذَلِكَ تَدْمِيرًا وَاضِحٌ. وَقِيلَ لَهَا طَاغِيَةٌ؛ لِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ مُجَاوِزَةٌ لِلْحَدِّ فِي الْقُوَّةِ وَشِدَّةِ الْإِهْلَاكِ.

وَالطُّغْيَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ الْآيَةَ [٦٩/ ١١] أَيْ جَاوَزَ الحُدُودَ الَّتِي يَبْلُغُهَا المَاءُ عَادَةً. أضواء البيان.

أما بخصوص عذاب قوم شعيب فقد قال الشيخ الشنقيطي: فَإِنْ قِيلَ الهَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا فِي «الْأَعْرَافِ» أَنَّهُ رَجْفَةٌ، وَذَكَرَ فِي «هُودٍ» أَنَّهُ صَيْحَةٌ، وَذَكَرَ فِي «الشُّعَرَاءِ»، أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ. فَالجَوَابُ مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ، قَالَ: وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ، أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٌ وَوَهَجٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ. أضواء البيان.

(١) اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى الطَّاغِيَةِ الَّتِي أَهْلَكَ اللهُ بِهَا ثَمُودَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ طُغْيَانُهُمْ وَكُفْرُهُمْ بِاللهِ. وقال آخرون: بل بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً فَأَهْلكتهم.

ورجَّحه الإمام الطبري فقال: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَأُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ الطَّاغِيَةِ. وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ اللهَ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ ثَمُودَ بِالْمَعْنَى الَّذِي أَهْلَكَهَا بِهِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ عَادٍ بِالَّذِي أَهْلَكَهَا بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] وَلَوْ كَانَ الخَبَرُ عَنْ ثَمُودَ بِالسَّبَبِ الَّذِي أَهْلَكَهَا مِنْ أَجْلِهِ، كَانَ الخَبَرُ أَيْضًا عَنْ عَادٍ كَذَلِكَ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، وَفِي إِتْبَاعِهِ ذَلِكَ بِخَبَرِهِ عَنْ عَادٍ بِأَنَّ هَلَاكَهَا كَانَ بِالرِّيحِ، الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ عَلَى أَنَّ إِخْبَارَهُ عَنْ ثَمُودَ إِنَّمَا هُوَ مَا بَيَّنْتُ. تفسير الطبري.

ورجَّحه الشنقيطي فقال: وَاعْلَمْ أَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالطَّاغِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [٦٩/ ٥] أَنَّهَا الصَّيْحَةُ الَّتِي أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِهَا، كَمَا يُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [٦٩/ ٦].

خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الطَّاغِيَةَ مَصْدَرٌ كَالْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أُهْلِكُوا بِطُغْيَانِهِمْ، أَيْ بِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [٩١/ ١١]. =

وَأَمَّا عَادٌ قَوْمُ هُودٍ؛ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ شَدِيدَةِ الْعُصوف مَعَ شِدَّةِ بَرْدِهَا[1] عَتَتْ عَلَى خُزَّانِهَا فِي الْهُبُوبِ، فَتَجَاوَزَتْ فِي الشِّدَّةِ، وَالْعُصُوفِ مِقْدَارَهَا الْمَعْرُوفَ فِي الْهُبُوبِ وَالْبَرْدِ.

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: سَخَّرَ تِلْكَ الرِّيَاحَ عَلَى

= وَخِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الطَّاغِيَةَ هِيَ أَشْقَاهُمُ الَّذِي انْبَعَثَ فَعَقَرَ النَّاقَةَ، وَأَنَّهُمْ أُهْلِكُوا بِسَبَبِ فِعْلِهِ، وَهُوَ عَقْرُهُ النَّاقَةَ، وَكُلُّ هَذَا خِلَافُ التَّحْقِيقِ.

وَالصَّوَابُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- هُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَاخْتَارَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. أضواء البيان (٧/ ٢٣).

(١) فِي مَعْنَى «الصَّرْصَرِ» لِعُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ وَجْهَانِ مَعْرُوفَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ هِيَ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الشَّدِيدَةُ الْهُبُوبِ، الَّتِي يُسْمَعُ لِهُبُوبِهَا صَوْتٌ شَدِيدٌ، وَعَلَى هَذَا؛ فَالصَّرْصَرُ مِنَ الصَّرَّةِ الَّتِي هِيَ الصَّيْحَةُ الْمُزْعِجَةُ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أَيْ فِي صَيْحَةٍ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى صَرِيرُ الْبَابِ وَالْقَلَمِ، أَيْ صَوْتُهُمَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الصَّرْصَرَ مِنَ الصِّرِّ الَّذِي هُوَ الْبَرْدُ الشَّدِيدُ الْمُحْرِقُ، وَمِنْهُ عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الْآيَةَ [٣/ ١١٧]، أَيْ فِيهَا بَرْدٌ شَدِيدٌ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ كِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ، وَأَنَّ الرِّيحَ الْمَذْكُورَةَ جَامِعَةٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَهِيَ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ، بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ.

وقد بين الله هذه الريح بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [٥١/ ٤١-٤٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [٥٤/ ١٩-٢٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الْآيَةَ [٤٦/ ٢٤-٢٥].

وَهَذِهِ الرِّيحُ الصَّرْصَرُ هِيَ الْمُرَادُ بِصَاعِقَةِ عَادٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾ الْآيَةَ [٤١/ ١٣] أضواء البيان «بتصرف يسير» (٧/ ١٧).

عَادٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ متتابعة[١]؛ فَتَرَى قَوْمَ عَادٍ فِي تِلْكَ السَّبْعِ اللَّيَالِي وَالثَّمَانِيَةِ الْأَيَّامِ الحُسُومِ صَرْعَى قَدْ هلكوا، كأنهم أُصُولُ نَخْلٍ قَدْ خَوَتْ، فَهَلْ تَرَى لهم مِنْ بَقَاءٍ؟!

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: وجاء الطاغية فرعون، ومَن سبقه من الأمم التي كفرت برسلها، وأهل قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم ديارهم؛ بسبب الفعلة المنكرة من الكفر والشرك والفواحش، فعصت كل أمة منهم رسول ربهم الذي أرسله إليهم، فأخذهم الله أخذة بالغة في الشدة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: إِنَّا لَمَّا كَثُرَ المَاءُ فَتَجَاوَزَ حَدَّهُ المَعْرُوفَ، حَمَلْنَا نوحًا والمؤمنين معه فِي السَّفِينَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي المَاءِ[٢]؛ لِنَجْعَلَ تلك السَّفِينَةَ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً تَتَّعِظُونَ بِهَا. وتحفظ هذه العظة كل أذن مِن شأنها أن تحفظ، وتعقل عن الله ما سمعت.

---

(١) اختلف في قوله: ﴿حُسُومًا﴾ فقال البعض: الرِّيحَ، وَأَنَّهَا تَحْسِمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا، وَجَعَلَ هَذِهِ الحُسُومَ مِنْ صِفَةِ الرِّيحِ، وقال آخرون: متتابعة، ورجَّحه الامام الطبري فقال: وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِقَوْلِهِ: ﴿حُسُومًا﴾ مُتَتَابِعَةً، لِإِجْمَاعِ الحُجَّةِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى ذَلِكَ. تفسير الطبري.
قال الأزهري: قَالَ الْفراء: فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ الحُسُوم: التِّبَاع إِذا تَتَابع الشَّيْء فَلم يَنْقَطِع أَوَّلُه عَن آخِره. قيل فِيهِ حُسومٌ. قَالَ: وَإِنَّمَا أُخِذَ من حَسْم الدَّاء إِذا كُوِيَ صاحِبُه؛ لِأَنَّهُ يُحْمَى؛ يُكْوى بالمِكواة ثمَّ يُتابع ذَلِك عَلَيْهِ.
وَقَالَ الزَّجَّاج: الَّذِي تُوجِبُه اللُّغة فِي معنى قَوْله: ﴿حُسُومًا﴾ أَي تَحْسِمهم حسومًا أَي تُذْهِبهم وتُفْنِيهم. تهذيب اللغة (٤/ ١٩٩). وعلى قول الزجاج يكون القول الأول أقرب إلى أصل الاشتقاق.

(٢) قال ابن عاشور: والجارِيَةِ: صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ وَهُوَ السَّفِينَةُ وَقَدْ شَاعَ هَذَا الْوَصْفُ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْاسْمِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الرَّحْمَن:٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: فَإِذَا نَفَخَ فِي البوق إِسْرَافِيل النَّفْخَة الْأُولَى[(١)] ورفعت الأرض والجبال من أماكنها فضرب بعضها ببعض فاندكَّت، وصارت كثيبًا مهيلا[(٢)]. ففي ذلك الوقت قامت القيامة.

(١) اختلف العلماء في عدد النفخات في الصور هل هي ثلاث نفخات أم نفختان فقط؟
فمنهم من قال: إنها ثلاث نفخات، ومنهم من قال: إنها نفختان فقط، واعتبروا نفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لها أي: فزعوا فزعًا ماتوا منه، وهذا اختيار القرطبي وغيره، والراجح أنها ثلاث نفخات وهو قول ابن كثير وأبي بكر بن العربي، وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فإنه قال: والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات نفخة الفزع، ذكرها في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.
ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾.
مجموع الفتاوي(١٦/ ٣٥)، مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص٥٦٤). ناصر عايض.

(٢) ذكر الشيخ الشنقيطي الأحوال التي تعتري الجبال يوم القيامة، وذلك في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ فقال: ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَلُّ فِيهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ، فَتُسَيَّرُ جِبَالُهُ، وَتَبْقَى أَرْضُهُ بَارِزَةً لَا حَجَرَ فِيهَا وَلَا شَجَرَ، وَلَا بِنَاءَ وَلَا وَادِيَ وَلَا عَلَمَ، ذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَثِيرَةٍ، فَذَكَرَ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَيَدُكُّهُمَا دَكَّةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ...﴾ الْآيَةَ [٦٩/ ١٣-١٥].
وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ تَسْيِيرِ الْجِبَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ذَكَرَهُ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [٥٢/ ٩-١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابٗا﴾ [٧٨/ ٢٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [٨١/ ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ الْآيَةَ [٢٧/ ٨٨].
ثُمَّ ذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُفَتِّتُهَا حَتَّى تَذْهَبَ صَلَابَتُهَا الحَجَرِيَّةُ وَتَلِينَ، فَتَكُونَ فِي عَدَمِ صَلَابَتِهَا وَلِينِهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، وَكَالرَّمْلِ الْمُتَهَايِلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [٧٠/ ٨-٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [١٠١/ ٤-٥]، وَالْعِهْنُ: الصُّوفُ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ =

قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: وَانْصَدَعَتِ وتشققت السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ ضعيفة مسترخية[1]، وَالمَلائكة عَلَىَ أَطْرَافِ السَّمَاءِ، ويحمل عرش ربك ثَمَانِيَةٌ من الملائكة[2] أو ثمانية من الصفوف، في ذلك اليوم تعرضون على الله، لا تَخْفَى مِنْكُمْ سريرة مما كنتم تسرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: فأمَّا من أُعطي كتاب أعماله بيمينه، فيقول

=وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [٧٣/ ١٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [٥٦/ ٥]، أَيْ: فُتِّتَتْ حَتَّى صَارَتْ كَالْبَسِيسَةِ، وَهِيَ دَقِيقٌ مَلْتُوتٌ بِسَمْنٍ، عَلَى أَشْهَرِ التَّفْسِيرَاتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ يَجْعَلُهَا هَبَاءً وَسَرَابًا. قَالَ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [٥٦/ ٥، ٦]، وَقَالَ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [٧٨/ ٢٠].

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ السَّرَابَ عِبَارَةٌ عَنْ لَا شَيْءَ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [٢٤/ ٣٩]. أضواء البيان (٣/ ٢٨٣).

(١) هذه الحال التي تحصل للسماء يوم القيامة بيَّنها القرآن في آيات أُخَر كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [٥٥/ ٣٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [٦٩/ ١٥-١٦] وَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ الْآيَةَ [٨٤/ ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ الْآيَةَ [٧٧/ ٨-٩] فَقَوْلُهُ: ﴿فُرِجَتْ﴾: أَيْ شُقَّتْ، فَكَانَ فِيهَا فُرُوجٌ أَيْ شُقُوقٌ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [٨٢/ ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [٧٨/ ١٩] أضواء البيان (٦/ ٤٤).

(٢) روى أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**».

ابتهاجًا وسرورًا: خذوا[١] اقرؤوا كتابي، إني أيقنت[٢] في الدنيا بأني سألقى جزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح، فهو في عيشة هنيئة مرضية[٣]،

---

(١) قال السمين الحلبي: قوله: ﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا. وفيها لغاتٌ، وذلك أنَّها تكونُ فِعْلًا صريحًا، وتكونُ اسمَ فعلٍ، ومعناها في الحالَيْنِ خُذْ. فإن كانَتِ اسمَ فعلٍ، وهي المذكورةُ في الآيةِ الكريمةِ ففيها لغتان: المدُّ والقَصْرُ تقول: ها درهمًا يا زيدُ، وهاءَ درهمًا. ويكونان كذلك في الأحوالِ كلِّها مِنْ إفرادٍ وتثنيةٍ وجمعٍ وتذكيرٍ وتأنيثٍ، وتتصلُ بهما كافُ الخطابِ اتصالَها باسمِ الإشارةِ، فَتُطابِقُ مخاطبَك بحسب الواقعِ، مطابَقَتَها وهي ضميرُهُ، نحو: هاكَ هاءكَ، هاكِ هاءَكِ إلى آخرِه، وتَحْذِفُ كافَ الخطابِ همزةُ «هاء» مُصَرَّفةً تَصَرُّفَ كافِ الخطابِ، فتقول: هاءَ يا زيدُ، وهاءِ يا هندُ، هاؤُما، هاؤُم، هاؤُنَّ، وهي لغةُ القرآن... واختُلِفَ في مَدْلولِها: فالمشهورُ أنَّها بمعنى خُذوا. وقيل: معناها تعالوا، فيتعدَّى ب «إلى»... والهاءُ في «كتابِيَهْ وحِسابِيَهْ وسُلْطانِيَهْ ومالِيَهْ» للسَّكْت، وكان حقُّها أَنْ تُحْذَفَ وَصْلًا، وتَثْبُتَ وَقْفًا، وإنما أُجْرِيَ الوَصْلُ مُجْرَى الوقفِ، أو وُصِلَ بنيَّةِ الوقفِ في «كتابِيَهْ وحِسابِيَهْ» اتفاقًا فأَثْبَتَ الهاء، وكذلك في «مالِيه وسُلْطانِيَهْ»، و«ما هِيَهْ» في «القارعة» عند القُرَّاءِ كلِّهم إلاَّ حمزةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه حَذَفَ الهاءَ مِنْ هذه الكَلِمِ الثلاثِ وَصْلًا وأَثْبَتَها وقفًا؛ لأنَّها في الوقفِ يُحْتاج إليها لتحصينِ حركةِ الموقوفِ عليه، وفي الوصلِ يُسْتَغْنَى عنها. الدر المصون(١٠/ ٤٣٢).

(٢) قالَ ابنُ فارسٍ (ت:٣٩٥): «الظَّاءُ والنُّونُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيين مختلفين: يقينٍ وشكٍّ. فأمَّا اليقينُ، فقولُ القائلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا؛ أي: أَيْقَنْتُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أرادَ -والله أعلمُ-: يوقنونَ، والعربُ تقولُ ذلك وتعرفُه، قال شاعرُهُم: فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ أرادَ: أَيْقِنُوا، وهو في القرآن كثير» ينظر (مقاييس اللغة) وعن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يقين، «إني ظننت»، «وظنوا»، (تفسير الطبري (١/ ١٩)، (التفسير اللغوي ص١٠٥) مساعد الطيار.

(٣) وُصِفَتِ الْعِيشَةُ بِالرِّضَا وَهِيَ مَرْضِيَّةٌ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَدْحٌ لِلْعِيشَةِ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ فَتَقُولُ: هَذَا لَيْلٌ نَائِمٌ، وَسِرٌّ كَاتِمٌ، وَمَاءٌ دَافِقٌ، فَيُوَجِّهُونَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَفْعُولٌ لِمَا يُرَادُ مِنَ الْمَدْحِ أَوِ الذَّمِّ، وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَقُولَ لِلضَّارِبِ مَضْرُوبٌ، وَلَا لِلْمَضْرُوبِ ضَارِبٌ؛ لِأَنَّهُ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا ذَمَّ. الطبري(٢٣/ ٢٣٣) ط هجر. هذا اللون من البلاغة يعرف «بالمجاز العقلي» يقول فيه الدكتور عبد الرحمن الميداني: جاء في هذا النّصِّ وصْفُ المؤمن في الجنّة بأنّ عِيشَتَهُ رَاضِية، والأصْلُ أنْ يكون هو الرّاضي بها، فأسْنِد الرّضا إلى العيشة، والملابَسَةُ أنّه هو صاحِبُ العيشة، فهي جزءٌ من ذاته.
والغرضُ البيانيُّ الإشعارُ بمصاحبة الرضا لكلّ أجزاء عيشة المؤمن في الجنّة، فلا يُوجَدُ عُنْصرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنيّةٌ مرافقة لها، تخلُو من الرّضا، وهذا المعنى لا تؤدّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، =

في جنة مرتفعة المكان والدرجات، ثمارها قريبة يتناولها القائم والقاعد والمضطجع. يقال لهم: كلوا أكلًا واشربوا شربًا بعيدًا عن كل أذى، سالمين من كل مكروه؛ بسبب ما قدَّمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله، فيقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني لم أُعط كتابي، ولم أعلم ما جزائي يا ليت الموتةَ التي متُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، ولم أُبعث بعدها، ما نفعني مالي الذي جمعته في الدنيا، ذهبت عني حجتي، ولم يَعُدْ لي حجة أحتج بها.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: يقال لخزنة جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم، فاجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال، ثم أدخلوه الجحيم ليقاسي حرها، ثم في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعًا فأدخلوه فيها؛ إنه كان لا يصدِّق بأن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، ولا يعمل بهديه، ولا يحث الناس في الدنيا على إطعام أهل الحاجة من المساكين وغيرهم[(١)].

=وذلك لأنّ الإنسان قد يرضى عن عيشته ولو دخلت ضمنها منغِّصات، إذ هو ينظر إلى عيشته باعتبار الأغلب من أحوالها، بخلاف العيشة نفسها التي تمرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان، إذْ كُلُّ جزء منها مُنْفَكٌّ عن سابقه وعن لاحقه، فإسناد الرضا إليها يدلُّ على أنّ كلَّ أجزائها مغمورٌ بالرضا (البلاغة العربية ٢/ ٣٠٠).

(١) قال ابن عاشور: وَجُمْلَةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فِي مَوْضِعِ الْعِلَّةِ لِلْأَمْرِ بِأَخْذِهِ وَإِصْلَائِهِ الْجَحِيمَ.

وَوَصْفُ اللهِ بِالْعَظِيمِ هُنَا إِيمَاءٌ إِلَى مُنَاسَبَةِ عِظَمِ الْعَذَابِ لِلذَّنْبِ إِذْ كَانَ الذَّنْبُ كُفْرَانًا بِعَظِيمٍ فَكَانَ جَزَاءً وِفَاقًا. وَالْحَضُّ عَلَى الشَّيْءِ: أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَحَدٍ فِعْلَ شَيْءٍ وَيُلِحَّ فِي ذَلِكَ الطَّلَبِ. =

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي: فليس لهذا الكافر يوم القيامة قريب يدفع عنه العذاب. وليس له طعام إلا مِن صديد أهل النار(١)، لا يأكله إلا المذنبون المصرُّون على الكفر بالله.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

= وَنَفْيُ حَضِّهِ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ يَقْتَضِي بِطَرِيقِ الْفَحْوَى أَنَّهُ لَا يُطْعِمُ الْمِسْكِينَ مِنْ مَالِهِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِإِطْعَامِ الْمِسْكِينِ فَهُوَ لَا يُطْعِمُهُ مِنْ مَالِهِ، فَالْمَعْنَى لَا يُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَلَا يَأْمُرُ بِإِطْعَامِهِ. التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٩).

(١) قال الشيخ الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾.

ظَاهِرُ هَذَا الحَصْرِ أَنَّهُ لَا طَعَامَ لِأَهْلِ النَّارِ إِلَّا الْغِسْلِينَ، وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَاتِ، لِأَنَّهُ فِعْلِينٌ مِنَ الْغَسْلِ لِأَنَّ الصَّدِيدَ كَأَنَّهُ غُسَالَةُ قُرُوحِ أَهْلِ النَّارِ، أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

وَقَدْ جَاءَتْ آيَةٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى حَصْرِ طَعَامِهِمْ فِي غَيْرِ الْغِسْلِينِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [٨٨/ ٦]، وَهُوَ الشِّبْرِقُ الْيَابِسُ عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَاتِ،...

وَلِلْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا أَجْوِبَةٌ كَثِيرَةٌ أَحْسَنُهَا عِنْدِي اثْنَانِ مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْعَذَابَ أَلْوَانٌ، وَالْمُعَذَّبُونَ طَبَقَاتٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَا طَعَامَ لَهُ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا طَعَامَ لَهُ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا طَعَامَ لَهُ إِلَّا الزَّقُّومَ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [١٥/ ٤٤].

الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ أَنَّهُمْ لَا طَعَامَ لَهُمْ أَصْلًا؛ لِأَنَّ الضَّرِيعَ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الطَّعَامِ وَلَا تَأْكُلُهُ الْبَهَائِمُ فَأَحْرَى الْآدَمِيُّونَ.

وَكَذَلِكَ الْغِسْلِينُ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ، فَمَنْ طَعَامُهُ الضَّرِيعُ لَا طَعَامَ لَهُ، وَمَنْ طَعَامُهُ الْغِسْلِينُ كَذَلِكَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ لَا ظِلَّ لَهُ إِلَّا الشَّمْسَ، وَلَا دَابَّةَ إِلَّا دَابَّةَ ثَوْبَانَ يَعْنُونَ الْقُمَّلَ، وَمُرَادُهُمْ لَا ظِلَّ لَهُ أَصْلًا وَلَا دَابَّةَ لَهُ أَصْلًا، وَعَلَيْهِ فَلَا إِشْكَالَ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. دفع ايهام الاضطراب (ص٢٤٤).

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: فلا أقسم بما تبصرون من المرئيات، وما لا تبصرون مما غاب عنكم، إن القرآن لَكَلام الله، يتلوه رسول عظيم الشرف والفضل، وليس بقول شاعر كما تزعمون، قليلًا ما تؤمنون، وليس بسجعٍ كسجع الكهان، قليلًا ما يكون منكم تذكُّر وتأمُّل للفرق بينهما، ولكنه كلام رب العالمين الذي أنزله على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: ولو ادَّعى محمد علينا شيئًا لم نقله، لانتقمنا وعاجلناه بالعقوبة[1]، ثم لقطعنا منه عرق قلبه، فلا يقدر أحد منكم أن يحجز عنه عقابنا. إن هذا القرآن لعظة للمتقين الذين يمتثلون أوامر الله، ويجتنبون نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: إنا لَنعلم أنَّ مِنكم مَن يكذِّب بهذا القرآن مع وضوح آياته، وإن التكذيب به لندامة عظيمة على الكافرين به حين يرون عذابهم ويرون نعيم المؤمنين به، وإنه لحق ثابت ويقين لا شك فيه. فنزِّه الله سبحانه عما لا يليق بجلاله، واذكره باسمه العظيم.

---

(١) قال ابن القيم: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ يقول سبحانه لو تقول علينا قولًا واحدًا من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمنه ثم أهلكناه هذا أحد القولين، قال ابن قتيبة: في هذا قولان: أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة وأقام اليمين مقام القوة لأن قوة كل شيء في ميامنه قلت، وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ وهذا قول ابن عباس في اليمين

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده. التبيان (ص١٨٤).

سورة المعارج

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: دعا داع بعذاب واقع[(١)] ليس له دافع فهو واقع لا محالة. من الله ذي العلو والدرجات[(٢)] ومصاعد الملائكة وهي السموات تصعد الملائكة وجبريل إِلَى اللهِ جَلَّ

---

(١) قال الإمام ابن كثير: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فِيهِ تَضْمِينٌ دَلَّ عليه حرف الباء كأنه مقدر استعجل سائل بعذاب واقع كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧] أَيْ وَعَذَابُهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ...عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قَالَ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قَالَ: «ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللهِ» وهو واقع بهم،... وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ سَأَلَ سائِلٌ بِعذابٍ واقِعٍ أَيْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْعَذَابِ.
وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ بَعِيدٌ عَنِ الْمُرَادِ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ لدلالة السياق عليه. تفسير ابن كثير(٨/ ٢٣٥).

(٢) قال الشيخ السعدي: فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عَزَّوَجَلَّ، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام.
وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.
ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى.
فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.
فبؤسًا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم. تفسير السعدي (ص٨٨٥).

وَعَزَّ[(١)]، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَصْعَدُ من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع في يوم مقداره خمسون ألف سنة بالنسبة لصعود غير الملائكة من الخلق[(٢)] [(٣)].

---

(١) هذه الآية من الآيات التي استدل بها الأئمة والعلماء على إثبات علو الله بذاته، وأنه تعالى فوق عرشه، تصعد إليه الملائكة والأعمال الصالحة والأرواح والدعاء، وغير ذلك.
قال شيخ الإسلام: فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه فوق كل شيء، وعليٌّ على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:١٦-١٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾... إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.
وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى. مثل قصة معراج رسول الله ﷺ إلى ربه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقول الملائكة الذين يتعاقبون [فيكم] بالليل والنهار، فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم.... وقوله في الحديث الصحيح للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»....» الحموية (ص٢٢٠).

(٢) ذكر الإمام الطبري قولين آخرين ولم يعلق عليهما، الأول: أن المقصود باليوم ذي الخمسين ألف سنة مدة بقاء الدنيا، الثاني: أنه يوم القيامة. قال الإمام ابن عطية معلقًا على القول «بأنه يوم القيامة»: وهذا هو ظاهر قول النبي ﷺ: «**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له صفائح من نار يوم القيامة، تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره ألف سنة**». وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري: بل قدره في هوله وشدته ورزاياه للكفار قدر خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. وهذا كما تقول في اليوم العصيب، إنه كسنة ونحو هذا قال أبو سعيد: قيل يا رسول الله ما أطول يومًا مقداره خمسون ألف سنة، فقال: «والذي نفسي بيده ليخف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة»، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ من أيام الدنيا. وقد ورد في يوم القيامة أنه كألف سنة وهذا يشبه أن يكون في طوائف دون طوائف».
ويلاحظ أن العامل في قوله: «فِي يَوْمٍ» على قول من قال إنه يوم القيامة قوله دافِعٌ، والمعنى: أن هذا العذاب ليس له دافع في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة وهو يوم القيامة وعلى سائر الأقوال تَعْرُجُ، المحرر الوجيز (٥/ ٣٦٥).

(٣) قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِقْدَارَ الْيَوْمِ عِنْدَ اللهِ أَلْفُ سَنَةٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٣٢/ ٥]. =

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ أي: فاصْبِرْ صبرًا لا جزع فيه عَلَى أَذَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَكَ، وَلَا يُثْنِيكَ مَا تَلْقَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ عَنْ تَبْلِيغِ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ أي: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ غَيْرَ وَاقِعٍ، وَنَحْنُ نَرَاهُ قَرِيبًا، لِأَنَّهُ كَائِنٌ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالشَّيْءِ الْمُذَابِ.

= وَقَدْ جَاءَتْ آيَةٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «سَأَلَ سَائِلٌ»: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ الْآيَةَ [٧٠/ ٤].

اعْلَمْ أَوَّلًا أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رَوَى عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَيُّوبَ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ حَضَرَ كُلًّا مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فِيهَا، وَيَقُولُ: لَا أَدْرِي.

وَلِلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: هُوَ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ سِمَاكٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَنَّ يَوْمَ الْأَلْفِ فِي سُورَةِ «الحَجِّ» هُوَ أَحَدُ الْأَيَّامِ السِّتَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَيَوْمُ الْأَلْفِ فِي سُورَةِ «السَّجْدَةِ»، هُوَ مِقْدَارُ سَيْرِ الْأَمْرِ وَعُرُوجِهِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَيَوْمُ الخَمْسِينَ أَلْفًا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِجَمِيعِهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الِاخْتِلَافَ بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [٧٤/ ٩-١٠]، ذَكَرَ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ صَاحِبُ الْإِتْقَانِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. دفع ايهام الاضطراب (ص١٥٩).

(١) أورد الإمام الطبري قول ابن زيد في الآية وأن الأمر بالصبر منسوخ، ثم عقَّب عليه بقوله: وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ أَنَّهُ كَانَ أُمِرَ بِالْعَفْوِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ؛ قَوْلٌ لَا وَجْهَ لَهُ، لِأَنَّهُ لَا دَلَالَةَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ مِنْ بَعْضِ الْأَوْجُهِ الَّتِي تَصِحُّ مِنْهَا الدَّعَاوِي، وَلَيْسَ فِي أَمْرِ اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ فِي الصَّبْرِ الجَمِيلِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَمْرًا مِنْهُ لَهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا مِنَ اللهِ لَهُ بِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ﷺ مِنْ لَدُنْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَنِ احْتَرَمَهُ فِي أَذًى مِنْهُمْ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ صَابِرٌ عَلَى مَا يَلْقَى مِنْهُمْ مِنْ أَذًى قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ بِحَرْبِهِمْ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ بِذَلِكَ. جامع البيان (٢٣/ ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالصُّوفِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: وَلَا يَسْأَلُ قَرِيبٌ قَرِيبَهُ عَنْ شَأْنِهِ لِشُغْلِهِ بِشَأْنِ نفسه،(١) وعدم سؤال بعضهم بعضًا ليس ناتجًا عن عدم معرفتهم لبعضهم بعضًا، بل يبصرهم ربهم بهم فيعرف كل قريب قريبه لكن اشتغاله بنفسه يحول دون سؤال غيره(٢).

---

(١) قال الشيخ الشنقيطي في تعليقه على قوله تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ أُخَرُ تَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْأَنْسَابِ بَيْنَهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الْآيَةَ [٨٠]، وَآيَاتٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٣٧/ ٢٧]. وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِنَفْيِ الْأَنْسَابِ انْقِطَاعُ فَوَائِدِهَا وَآثَارِهَا الَّتِي كَانَتْ مُتَرَتِّبَةً عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، مِنَ الْعَوَاطِفِ وَالنَّفْعِ وَالصِّلَاتِ وَالتَّفَاخُرِ بِالْآبَاءِ لَا نَفْيُ حَقِيقَتِهَا. وَالْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ نَفْيَ السُّؤَالِ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى، وَقَبْلَ الثَّانِيَةِ، وَإِثْبَاتَهُ بَعْدَهُمَا مَعًا.

الثَّانِي: أَنَّ نَفْيَ السُّؤَالِ عِنْدَ اشْتِغَالِهِمْ بِالصَّعْقِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَإِثْبَاتَهُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ وَهُوَ عَنِ السُّدِّيِّ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّ السُّؤَالَ الْمَنْفِيَّ سُؤَالٌ خَاصٌّ، وَهُوَ سُؤَالُ بَعْضِهِمُ الْعَفْوَ مِنْ بَعْضٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ لِقُنُوطِهِمْ مِنَ الْإِعْطَاءِ، وَلَوْ كَانَ الْمَسْؤُولُ أَبًا أَوِ ابْنًا أَوْ أُمًّا أَوْ زَوْجَةً. ذَكَرَ هَذِهِ الْأَوْجُهَ الثَّلَاثَةَ أَيْضًا صَاحِبُ الْإِتْقَانِ. الدفع (ص١٦٥).

(٢) نقل الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي الَّذِينَ عُنُوا بِالهَاءِ وَالمِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عُنِيَ بِذَلِكَ الْأَقْرِبَاءُ، أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَقْرِبَاءَهُمْ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّهُمْ يُبَصَّرُونَ الْكُفَّارَ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعًا لِآخَرِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ، أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الْمَتْبُوعِينَ فِي النَّارِ. =

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: يَوَدُّ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ وَيَتَمَنَّى أَنَّهُ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ اللهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِبَنِيهِ وزَوْجَتِه، وَأَخِيهِ وعَشِيرَتِه الَّتِي تُؤْوِيه، وَبِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنَ الخَلْقِ، ثُمَّ يُنْجِيهِ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَبَدَأَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذِكْرِ الْبَنِينَ، ثُمَّ الصَّاحِبَةِ، ثُمَّ الْأَخِ، إِعْلَامًا مِنْهُ عِبَادَهُ أَنَّ الْكَافِرَ مِنْ عَظِيمِ مَا يَنْزِلُ بِهِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْبَلَاءِ يَفْتَدِي نَفْسَهُ، لَوْ وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا بِأَحَبِّ النَّاسِ إليه كان فِي الدُّنْيَا، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ نَسَبًا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: لا قرابة يومئذ تنفع ولا فداء يقبل، إِنَّ جهنم نَزَّاعَةً لجلدة الرأس وأطراف البدن، تناديهم جهنم المسماة لظى: إِلَيَّ إِلَيَّ يا من أدبر عن طاعة الله ورسوله، وتركها ظهره فلم يلتفت إليها، وتولى عن الإيمان؛ فلم يطلبه، وجمع الأموال، فجعله في أوعية، ولم يؤد منه الحقوق الواجبة فيه من زكاة وغيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أي: إِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ خُلِقَ شَدِيد الجَزَعِ مَعَ شِدَّةِ الحِرْصِ وَالضَّجَرِ. إِذَا قَلَّ مَالُهُ وَنَالَهُ الْفَقْرُ فَهُوَ جَزُوعٌ مِنْ ذَلِكَ

= ورجح الإمام الطبري القول الأول بقوله: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصِّحَّةِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ عَنْ شَأْنِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يُبَصَّرُونَهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ، ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى التَّأْوِيلَاتِ بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْبَهُهَا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ تَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ فَلَأَنْ تَكُونَ الهَاءُ وَالمِيمُ مِنْ ذِكْرِهِمْ أَشْبَهَ مِنْهَا بِأَنْ تَكُونَ مِنْ ذِكْرِ غَيْرِهِمْ. جامع البيان (٢٣/ ٢٥٩).

لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَثُرَ مَالُهُ، وَنَالَ الْغِنَى فَهُوَ مَنُوعٌ لِمَا فِي يَدِهِ، بَخِيلٌ بِهِ، لَا يُنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ مِنْهُ[1]. إِلاَّ الَّذِينَ يُطِيعُونَ اللهَ بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّلاَةِ، وَهُمْ عَلَى أَدَاءِ ذَلِكَ مُقِيمُونَ لَا يُضَيِّعُونَ مِنْهَا شَيْئًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: وَإِلَّا الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مُؤَقَّتٌ، وَهُوَ الزَّكَاةُ لِلسَّائِلِ الَّذِي يَسْأَلُهُ مِنْ مَالِهِ، وَالمَحْرُومِ الَّذِي قَدْ حُرِمَ الْغِنَى، فَهُوَ فَقِيرٌ متعفف لَا يَسْأَلُ[2]. والَّذِينَ يُقِرُّونَ بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْمُجَازَاةِ، والذين هم خائفون من عذاب الله. إن عذاب ربهم لا ينبغي أن يأمنه أحد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: والذين هم صائنون لفروجهم عن النظر إليها وعن الفاحشة. إلا على أزواجهم أو الجواري التي يملكونها. فمن طلب ما وراء ذلك فأولئك هم المعتدون الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

---

(١) قال الإمام ابن القيم: واذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلًا أظهر الاستجاعه وأسرع بها وإذا أصابه الألم أسرع الشكايه وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامه والاستكانه وباء بها سريعًا، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكايه، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا أفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان. عدة الصابرين (ص٢٧٥).

(٢) نقل الإمام الطبري اخْتِلَافَ أَلمفسرين فِي المَعْنِيِّ بِالحَقِّ المَعْلُومِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الزَّكَاةُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ، ولم يعلق الإمام على القول الثاني، وقال الإمام ابن عطية: وقال الحسن ومجاهد وابن عباس: هذه الآية في الحقوق التي في المال سوى الزكاة وهي ما ندبت الشريعة إليه من المواساة، وقد قال ابن عمر ومجاهد والشعبي وكثير من أهل العلم: إن في المال حقًّا سوى الزكاة وهذا هو الأصح في هذه الآية لأن السورة مكية، وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة. المحرر الوجيز (٥/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: والَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِ اللهِ الَّتِي ائْتَمَنَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَرَائِضِهِ وَأَمَانَاتِ عِبَادِهِ، وَعُهُودِهِ الَّتِي أَخَذَهَا عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِهِ وَعُهُودِ عباده يَرْقُبُونَ ذَلِكَ، وَيَحْفَظُونَهُ فَلَا يُضِيعُونَهُ، وَالَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ مَا اسْتُشْهِدُوا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِأَدَائِهَا، حَيْثُ يَلْزَمُهُمْ أَدَاؤُهَا غَيْرَ مُغَيَّرَةٍ وَلَا مبدلة، والذين هُمْ عَلَى مَوَاقِيتِ صَلَاتِهِمُ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ، وَحُدُودِهَا الَّتِي أَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ يُحَافِظُونَ، وَلَا يُضَيِّعُونَ لَهَا مِيقَاتًا وَلَا حَدًّا. هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ فِي بَسَاتِينَ مُكْرَمُونَ يُكْرِمُهُمُ اللهُ بِكَرَامَتِهِ.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فأيُّ دافع دفع هؤلاء الكفرة إلى أن يسيروا نحوك -أيها الرسول- مسرعين[1]، يتجمعون عن يمينك وعن شمالك حلقًا متعددة وجماعات متفرقة[2] يتحدثون ويتعجبون؟ أيطمع كل

---

(١) اختلف المفسرون في قَوْلِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: مُسْرِعِينَ. وَقَالَ آخَرُونَ: مُدِيمِي النَّظَرِ وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وقال آخرون: عامدين.
قال الإمام الطبري: وَالْإِهْطَاعُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ بِمَعْنَى الْإِسْرَاعِ أَشْهَرُ مِنْهُ بِمَعْنَى إِدَامَةِ النَّظَرِ». تفسير الطبري (٢٣/ ٢٧٧).
واللفظ يحتمل كل هذه المعاني والله أعلم. قال الإمام القرطبي: وَالمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، أي ما بالهم مسرعين عليك، مَادِّين أَعْنَاقَهُمْ، مُدْمِنِي النَّظَرِ إِلَيْكَ. تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٣).
قال ابن فارس: (هَطَعَ) الهَاءُ وَالطَّاءُ وَالْعَيْنُ: أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِقْبَالٍ عَلَى الشَّيْءِ وَانْقِيَادٍ. يُقَالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّيْءِ بِبَصَرِهِ: أَقْبَلَ. وَأَهْطَعَ الْبَعِيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنْقَادًا. وَأَهْطَعَ: أَسْرَعَ. مقاييس اللغة (٦/ ٥٦).

(٢) قال الرازي في قوله «عزين» نقلًا عن الأزهري: وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: عَزَا فُلَانٌ نَفْسَهُ إِلَى بَنِي فُلَانٍ يَعْزُوهَا عَزْوًا إِذَا انْتَمَى إِلَيْهِمْ، وَالِاسْمُ الْعِزْوَةُ. تفسير الرازي (٣٠/ ٦٤٧). =

واحد من هؤلاء الكفار أن يدخله الله جنة النعيم الدائم؟ ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا. إنَّا خلقناهم مما يعلمون مِن ماء مهين كغيرهم، فلم يؤمنوا، فمن أين يتشرفون بدخول جنة النعيم؟

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: فلا الأمر كما يتصورون من أنهم لا يبعثون بعد موتهم، أقسم برب المشارق الثلاثمائة والستين مشرقًا ومغربًا[1] إِنَّا لَقَادِرُونَ على أن نهلكهم ونأتي بخير منهم وَمَا يَفُوتُنَا مِنْهُمْ أَحَدٌ بِأَمْرٍ نُرِيدُهُ مِنْهُ، فَيُعْجِزَنَا هَرَبًا.

=- قال ابن عاشور: عِزِينَ: جَمْعُ عِزَةٍ بِتَخْفِيفِ الزَّايِ، وَهِيَ الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، اسْمٌ بِوَزْنِ فِعْلَةٍ. وَأَصْلُهُ عِزْوَةٌ بِوَزْنِ كِسْوَةٍ، وَلَيْسَتْ بِوَزْنِ عِدَةٍ. وَجَرَى جَمْعُ عِزَةٍ عَلَى الْإِلْحَاقِ بِجَمْعِ الْمُذَكَّرِ السَّالِمِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ وَهُوَ مِنْ بَابِ سِنَةٍ مِنْ كُلِّ اسْمٍ ثُلَاثِيٍّ حُذِفَتْ لَامُهُ وَعُوِّضَ عَنْهَا هَاءَ التَّأْنِيثِ وَلَمْ يُكْسَرْ، مِثْلَ عِضَةٍ (لِلْقِطْعَةِ) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٧).

(١) قال الإمام الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ...﴾ الْآيَةَ.

أَفْرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَثَنَّاهُمَا فِي سُورَةِ «الرَّحْمَنِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [٥٥/ ١٧]، وَجَمَعَهُمَا فِي سُورَةِ «سَأَلَ سَائِلٌ» فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [٧٠/ ٤٠]، وَجَمَعَ الْمَشَارِقَ فِي سُورَةِ «الصَّافَّاتِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [٣٧/ ٥].

وَالْجَوَابُ أَنَّ قَوْلَهُ هُنَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ جِنْسُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَهُوَ صَادِقٌ بِكُلِّ مَشْرِقٍ مِنْ مَشَارِقِ الشَّمْسِ الَّتِي هِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ، وَكُلِّ مَغْرِبٍ مِنْ مَغَارِبِهَا الَّتِي هِيَ كَذَلِكَ، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ...

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ يَعْنِي مَشْرِقَ الشِّتَاءِ وَمَشْرِقَ الصَّيْفِ وَمَغْرِبَهُمَا، كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، وَقِيلَ: مَشْرِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَغْرِبُهُمَا.

وَقَوْلُهُ: بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ:

أَيْ: مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَارِبِهَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَقِيلَ مَشَارِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَمَغَارِبُهَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. دفع ايهام الاضطراب (ص٢٢).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾

أي: فَاترك هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ، وَيَلْعَبُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ حَتَّى يُلَاقُوا عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُوعَدُونَهُ. يوم يخرجون من القبور مسرعين، كما كانوا في الدنيا يذهبون إلى آلهتهم التي اختلقوها للعبادة مِن دون الله، يهرولون ويسرعون[1]، ذليلة أبصارهم منكسرة إلى الأرض، تغشاهم الحقارة والمهانة، ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا، وكانوا به يهزؤون ويُكَذِّبون.

(١) **الإيفَاضُ:** الإسراعُ، وأصله أن يعدو من عليه الوَفْضَةُ، وهي الكنانة تتخشخش عليه، وجمعها: الوِفَاضُ. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يسرعون، وقيل: الأَوْفَاضُ الفرق من الناس المستعجلة. يقال: لقيته على أَوْفَاضٍ. أي: على عجلة، الواحد: وَفْضٌ. المفردات ٧٧.

سورة نوح

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إنا بعثنا نوحًا إلى قومه، وقلنا له: حذِّر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب موجع. قال نوح: يا قومي إني نذير لكم بيِّن الإنذار من عذاب الله إن عصيتموه، وإني رسول الله إليكم فاعبدوه وحده، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فإن أطعتموني واستجبتم لي؛ يصفح الله عن ذنوبكم ويغفر لكم، ويُمدد في أعماركم إلى وقت مقدر في علم الله تعالى، إن الموت إذا جاء لا يؤخر أبدًا، لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان والطاعة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ أي: قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى تَوْحِيدِكَ وَعِبَادَتِكَ، وَحَذَّرْتُهُمْ بَأْسَكَ وَسَطْوَتَكَ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِيَّاهُمْ إِلَى الحَقِّ إِلَّا إِدْبَارًا عَنْهُ وَهَرَبًا مِنْهُ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ. وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بك؛ ليكون سببًا في غفرانك ذنوبهم، وضعوا أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا دعوة الحق، وتغطَّوا بثيابهم؛ كي لا يروني، وأقاموا على كفرهم، واستكبروا عن قَبول الإيمان استكبارًا شديدًا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ أي: ثم إني دعوتهم إلى الإيمان ظاهرًا علنًا

في غير خفاء، ثم إني أعلنت لهم الدعوة بصوت مرتفع في حال، وأسررت بها بصوت خفيٍّ في حال أخرى، فقلت لقومي: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، إنه تعالى كان غفارًا لمن تاب من عباده ورجع إليه.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يَسْقِيكُمْ رَبُّكُمْ إِنْ تُبْتُمْ وَوَحَّدْتُمُوهُ وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ الْعِبَادَةَ الْغَيْثَ، فَيُرْسِلُ بِهِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مُتَتَابِعًا.

قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: وَيُعْطِكُمْ مَعَ ذَلِكَ رَبُّكُمْ أَمْوَالًا وَبَنِينَ، ويجعل لكم أنهارًا تَسْقُونَ مِنْهَا جَنَّاتِكُمْ وَمَزَارِعَكُمْ. ما لكم -أيها القوم- لا تخافون عظمة الله وسلطانه[1]، وقد خلقكم في أطوار متدرجة: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ولحمًا؟

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: أَلَمْ تَرَوْا أَيُّهَا الْقَوْمُ فَتَعْتَبِرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، سَمَاءً فَوْقَ سَمَاءٍ. وجعل القمر في هذه السموات نورًا[2]، وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الأرض؟

---

(١) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين في قَوْلِهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: مَا لَكُمْ لَا تَرَوْنَ للهِ عَظَمَةً. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تُعَظِّمُونَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ وَقَالَ آخَرُونَ: مَا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ للهِ عَظَمَةً وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ عَاقِبَةً وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ طَاعَةً، ثم قال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ للهِ عَظَمَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجَاءَ قَدْ تَضَعُهُ الْعَرَبُ إِذَا صَحِبَهُ الْجَحْدُ فِي مَوْضِعِ الْخَوْفِ». جامع البيان (٢٣/ ٢٩٧).

(٢) قال الإمام الطبري: كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقُولُ: إِنَّمَا قِيلَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] عَلَى الْمَجَازِ، كَمَا يُقَالُ: أَتَيْتُ بَنِي تَمِيمٍ، وَإِنَّمَا أَتَى بَعْضَهُمْ. جامع البيان (٢٣/ ٣٠٠). =

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ أي: والله أنشأ أصلكم من الأرض إنشاء(١)، ثم يعيدكم في الأرض بعد الموت، ويخرجكم يوم البعث إخراجًا محققًا. والله جعل لكم الأرض ممهدة كالبساط؛ لتسلكوا فيها طرقًا واسعة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ أي: قال رب إنهم خالَفُوا أَمْرِي، وَرَدُّوا عَلَيَّ مَا دَعْوَتُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى

= وقال الشيخ الشنقيطي: الْقُرْآنُ رُبَّمَا أُطْلِقَ فِيهِ الْمَجْمُوعُ مُرَادًا بَعْضُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [٧١/ ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [٩١/ ١٤]، مَعَ أَنَّ الْعَاقِرَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، كَمَا بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [٥٤/ ٢٩].

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَجِلَّاءِ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلَهُ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [٥٥/ ٢٢] يُرَادُ بِهِ الْبَحْرُ الْمِلْحُ خَاصَّةً دُونَ الْعَذْبِ غَلَطٌ كَبِيرٌ، لَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ مُخَالَفَةً صَرِيحَةً لِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ الْبَحْرَيْنِ الْمِلْحَ وَالْعَذْبَ بِقَوْلِهِ: وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ [٣٥/ ١٢]، ثُمَّ صَرَّحَ بِاسْتِخْرَاجِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ مِنْهَا جَمِيعًا بِقَوْلِهِ: وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَالْحِلْيَةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، فَقَصْرُهُ عَلَى الْمِلْحِ مُنَاقِضٌ لِلْآيَةِ صَرِيحًا، كَمَا تَرَى». الأضواء (١/ ٤٩٣).

(١) في قوله: ﴿نَبَاتٗا﴾ قال أبو السعود: ونباتًا إما مصدر مؤكدٌ لأنبتكُم بحذفِ الزوائدِ ويسمَّى اسمَ مصدرٍ أو لما يترتبُ عليهِ من فعلِهِ أي أنبتكُم من الأرض فنبتم نباتًا، ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ أنبتكُم من الأرضِ إنباتًا فنبتُم نباتًا، فيُحذفُ من الجملةِ الأُولى المصدرُ ومن الثانيةِ الفعلُ اكتفاءً في كلٍّ منهُمَا بما ذُكِرَ في الأُخْرَى». تفسير أبي السعود (٩/ ٣٩).

وهذا الضرب من الحذف التقابلي هو ما يعرف عند البلاغيين بـ«الاحتباك»، وهو: أن يتقابل كلامان يحذف من كل واحد منهما ما يدل عليه المذكور في الآخر لوجه بلاغي. ينظر «البلاغة العربية» (٢/ ٥٤)، عبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني.

وَالرَّشاد، وَاتَّبَعُوا فِي مَعْصِيَتِهِمْ كل ضال كَثُرَ مَالُهُ وَوَلَدُهُ، فَلَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ مَالِهِ وَوَلَدِهِ إِلَّا بُعْدًا مِنَ اللهِ، وَذَهَابًا عَنْ طَرِيقِ الحق، ومكر رؤساء الضلال بتابعيهم من الضعفاء مكرًا عظيما[1]. وقالوا لهم: لا تتركوا عبادة آلهتكم إلى عبادة الله وحده، التي يدعو إليها نوح، ولا تتركوا وَدًّا ولا سُواعًا ولا يغوث ويعوق ونَسْرا، وهي أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكانت أسماء رجال صالحين، لما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن يقيموا لهم التماثيل والصور؛ لينشطوا -بزعمهم- على الطاعة إذا رأوها، فلما ذهب هؤلاء القوم وطال الأمد، وخَلَفهم غيرهم، وسوس لهم الشيطان بأن أسلافهم كانوا يعبدون التماثيل والصور، ويتوسلون بها، وهذا من حكم تحريم التماثيل، وتحريم بناء القباب على القبور؛ لأنها تصير مع تطاول الزمن معبودة للجُهَّال.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: وَقَدْ ضَلَّ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي أُحْدِثَتْ عَلَى صُوَرِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، ثم قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ولا تزد -يا ربنا- هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر والعناد إلا طَبْعًا عَلَى قَلْبِهِ، حَتَّى لَا يهتدوا قُلُوبِهِم لِلْحَقِّ؛ فبسبب ذنوبهم وإصرارهم على الكفر والطغيان أُغرقوا بالطوفان،

---

(١) قرئ كبارًا وكُبَّارًا بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الْكَبِيرِ، فَأَوَّلُ المَرَاتِبِ الْكَبِيرُ، وَالْأَوْسَطُ الْكُبَّارُ بِالتَّخْفِيفِ، وَالنِّهَايَةُ الْكُبَّارُ بِالتَّثْقِيلِ، وَنَظِيرُهُ: جَمِيلٌ وَجُمَالٌ وَجُمَّالٌ، وَعَظِيمٌ وَعُظَامٌ وَعُظَّامٌ، وَطَوِيلٌ وَطُوَالٌ وَطُوَّالٌ.

قال ابن القيم: وَتَأمل قَوْلهم طَال الشَّيْء فَهُوَ طَوِيل وَكبر فَهُوَ كَبِير فَإِن زَاد طوله قَالُوا طوَالًا وكبارًا فَأتوا بِالْألف الَّتِي هِيَ أَكثر مدًّا وأطول من الْيَاء فِي المَعْنى الأطول؛ فَإِن زَاد كبر الشَّيْء وَثقل موقعه من النُّفُوس ثقلوا اسْمه فَقَالُوا كبَّارًا بتَشْديد الْبَاء. ينظر: تفسير الرازي(٣٠/ ٦٥٦)، جلاء الأفهام (ص١٤٩).

وأُدخلوا عقب الإغراق نارًا عظيمة اللهب والإحراق، فلم يجدوا من دون الله مَن ينصرهم، أو يدفع عنهم عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد يأسه من قومه: ربِّ لا تترك من الكافرين بك أحدًا حيًّا على الأرض يدور ويتحرك. إنك إن تتركهم دون إهلاك يُضلوا عبادك الذين قد آمنوا بك عن طريق الحق، ولا يأت من أصلابهم وأرحامهم إلا مائل عن الحق شديد الكفر بك والعصيان لك. وَذُكِرَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ، كَانَ بَعْدَ أَنْ أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: ربِّ اعْفُ عَنِّي، وَاسْتُرْ عَلَيَّ ذُنُوبِي وَعَلَى وَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي مُصَلِّيًا مُؤْمِنًا ولا تزد الكافرين إلا هلاكًا وخسرانًا في الدنيا والآخرة[1].

(١) **التَّبْر:** الكسر والإهلاك، يقال: تَبَرَهُ وتَبَّرَهُ.
قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩]، وقال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩]، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:٢٨]، أي: هلاكًا. المفردات للراغب (ص١٦٢).

سورة الجن

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي: قل -أيها الرسول-: أوحى الله إليَّ أنَّ جماعة من الجن قد استمعوا لتلاوتي للقرآن، فلما سمعوه قالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعًا في بلاغته وفصاحته وحِكَمِهِ وأَحْكَامِهِ وأخباره، يدعو إلى الحق والهدى، فصدَّقنا بهذا القرآن وعملنا به، ولن نشرك بربنا الذي خلقنا أحدًا في عبادته(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: عَلَا مُلْكُ رَبِّنَا وَسُلْطَانُهُ وَقُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ أَنْ يَكُونَ ضَعِيفًا ضَعْفَ خَلْقِهِ الَّذِينَ تَضْطَرُّهُمُ الشَّهْوَةُ إِلَى اتِّخَاذِ صَاحِبَةٍ، أَوْ يَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ(٢).

(١) أورد الإمام الطبري هذا الأثر عن ابْنِ عَبَّاسٍ في بيان سَبَبِ اسْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الجِنِّ القرآن، قَالَ ابن عباس: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الجِنِّ وَلَا رَآهُمْ؛ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، قَالَ: وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، فَقَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، قَالَ: فَانْطَلِقُوا فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَدَثَ، [ص:٣١١] قَالَ: فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَتَتَبَّعُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؛ قَالَ: فَانْطَلَقَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ؛ قَالَ: فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؛ قَالَ: فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:٢] قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ. جامع البيان (٢٣/ ٣١٠).

(٢) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾، فقال بعضهم: مَعْنَاهُ: آمَنَّا بِأَنَّهُ =

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: وأن سفيهنا -وهو إبليس- كان يقول على الله تعالى قولًا بعيدًا عن الحق والصواب، مِن دعوى الصاحبة والولد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: وَأَنَا حَسِبْنَا أَنْ لَنْ تَقُولَ بَنُو آدَمَ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا مِنَ الْقَوْلِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ بِالْوَادِي فِي الجَاهِلِيَّةِ فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هَذَا الْوَادِي، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ إِثْمًا وَازْدَادَتِ الجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً[1].

=تَعَالَى أَمْرُ رَبِّنَا وَسُلْطَانُهُ وَقُدْرَتُهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: عُنِيَ بِذَلِكَ جَلَالُ رَبِّنَا وَذِكْرُهُ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: تَعَالَى غِنَى رَبِّنَا وَقَالَ آخَرُونَ: عُنِيَ بِذَلِكَ الجَدُّ الَّذِي هُوَ أَبُو الْأَبِ، قَالُوا: ذَلِكَ كَانَ مِنْ كَلَامِ جَهَلَةِ الجِنِّ، ثم قال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِذَلِكَ: تَعَالَتْ عَظَمَةُ رَبِّنَا وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ. وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ لِأَنَّ لِلْجَدِّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا الجَدُّ الَّذِي هُوَ أَبُو الْأَبِ، أَوْ أَبُو الْأُمِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُوصَفَ بِهِ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا: فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، وَمَنْ وَصَفَ اللهَ بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ جَدًّا أَوْ هُوَ أَبُو أَبٍ أَوْ أَبُو أُمٍّ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَالمَعْنَى الْآخَرُ: الجَدُّ الَّذِي بِمَعْنَى الحَظِّ؛ يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو جَدٍّ فِي هَذَا الْأَمْرِ: إِذَا كَانَ لَهُ حَظٌّ فِيهِ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ: الْبَخْتُ، وَهَذَا المَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ بِقِيلِهِمْ: وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا إِنْ شَاءَ اللهُ. وَإِنَّمَا عَنَوْا أَنَّ حَظْوَتَهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعَظَمَةِ عَالِيَةٌ، فَلَا يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، لِأَنَّ الصَّاحِبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ لِلضَّعِيفِ الْعَاجِزِ الَّذِي تَضْطَرُّهُ الشَّهْوَةُ الْبَاعِثَةُ إِلَى اتِّخَاذِهَا، وَأَنَّ الْوَلَدَ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ شَهْوَةٍ أَزْعَجَتْهُ إِلَى الْوِقَاعِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنْهُ الْوَلَدُ، فَقَالَ النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ: عَلَا مُلْكُ رَبِّنَا وَسُلْطَانُهُ وَقُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ أَنْ يَكُونَ ضَعِيفًا ضَعْفَ خَلْقِهِ الَّذِينَ تَضْطَرُّهُمُ الشَّهْوَةُ إِلَى اتِّخَاذِ صَاحِبَةٍ، أَوْ وِقَاعِ شَيْءٍ يَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ. جامع البيان (٢٣/ ٣١٥).

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي مَعْنَى «رهقًا»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَزَادَ الْإِنْسُ بِالجِنِّ، جَرَاءَةً عَلَيْهِمْ، =

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: وأن كفار الإنس حسبوا كما حسبتم -يا معشر الجن- أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي: وأنَّا -معشر الجن- طلبنا بلوغ السماء؛ لاستماع كلام أهلها، فوجدناها مُلئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي يُرمى بها مَن يقترب منها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: وَأَنَّا كُنَّا مَعْشَرَ الجِنِّ نتخذ مِنَ السَّمَاءِ مَواضع لَنَسْمَعَ مَا يَحْدُثُ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا؛ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ فِيهَا يَجِدْ شِهَابَ نَارٍ قَدْ رُصِدَ وأعد له.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَعَذَابًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنْزِلَهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ[1]، بِمَنْعِهِ إِيَّانَا السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ

=وَازْدَادُوا بِذَلِكَ إِثْمًا. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ زَادُوا بِذَلِكَ طُغْيَانًا وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ فَزَادُوهُمْ خوفًا، واختار الإمام الطبري القول الأول معللًا بقوله: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَزَادَ الْإِنْسَ الجِنُّ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ إِثْمًا، وَذَلِكَ زَادُوهُمْ بِهِ اسْتِحْلَالًا لِمَحَارِمِ اللهِ. وَالرَّهَقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْإِثْمُ وَغَشَيَانُ المَحَارِمِ. جامع البيان (٠٢٣/ ٣٢٤)

(١) تأمل كيف تأدب مؤمنو الجن في الخطاب فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ فحذفوا الفاعل، مع أن الله خالق كل شيء، قال الإمام ابن القيم: وَكَذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وَلَمْ يَقُلْ: وَإِذَا أَمْرَضَنِي. حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]. وَلَمْ يَقُلْ: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ أَعِيبَهَا.

وَقَالَ فِي الْغُلَامَيْنِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُؤْمِنِي الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن:١٠] وَلَمْ يَقُولُوا: أَرَادَهُ بِهِمْ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]. =

وَرَجْمِهِ مَنِ اسْتَمَعَ مِنَّا فِيهَا بِالشُّهُبِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمُ الهُدَى بِأَنْ يَبْعَثَ مِنْهُمْ رَسُولًا مُرْشِدًا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الحَقِّ[(١)]؟!

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: وأنا منا الأبرار المتقون، ومنا قوم دون ذلك كفار وفساق، كنا فرقًا ومذاهب مختلفة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي:

= وَأَلْطَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] وَلَمْ يَقُلْ: أَطْعِمْنِي. مدارج السالكين (٢/ ٣٥٩). وقال شيخ الإسلام: وَالشَّرُّ الْمَخْلُوقُ لَا يُضَافُ إِلَى اللهِ مُجَرَّدًا عَنِ الْخَيْرِ [قَطُّ]، وَإِنَّمَا يُذْكَرُ عَلَى أَحَدِ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا مَعَ إِضَافَتِهِ إِلَى الْمَخْلُوقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [سُورَةُ الْفَلَقِ:٢]، وَإِمَّا مَعَ حَذْفِ الْفَاعِلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [سُورَةُ الجِنِّ:١٠].

وَمِنْهُ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سُورَةُ الْفَاتِحَةِ:٧]، فَذَكَرَ الْإِنْعَامَ مُضَافًا إِلَيْهِ، وَذَكَرَ الْغَضَبَ مَحْذُوفًا فَاعِلُهُ، وَذَكَرَ الضَّلَالَ مُضَافًا إِلَى الْعَبْدِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ:٨٠].

وَإِمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي الْعُمُومِ كَقَوْلِهِ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ:١٠٢]. منهاج السنة (٥/ ٤١٠).

(١) رجح الإمام الطبري هذا القول، ولم يرتض قول الْكَلْبِيِّ: أن المعنى: أَنْ يُطِيعُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُرْشِدَهُمْ أَوْ يَعْصُوهُ فَيُهْلِكَهُمْ» وعلل ترجيحه بقوله: وَإِنَّمَا قُلْنَا الْقَوْلَ الْأَوَّلَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عُقَيْبَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فَكَانَ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ قِصَّةِ مَا وَلِيَهُ وَقَرُبَ مِنْهُ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ خَبَرِ مَا بَعُدَ عَنْهُ. جامع البيان (٢٣/ ٣٢٩).

(٢) **القَدُّ:** قطع الشيء طولًا. قال تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف:٢٦]، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٧].

والْقِدُّ: الْمَقْدُودُ، ومنه قيل لقامة الإنسان: قَدٌّ، وقَدَّدْتُ اللّحم فهو قَدِيدٌ، والقِدَدُ: الطّرائق. قال: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١]، الواحدة: قِدَّةٌ، والْقِدَّةُ: الفِرقة من الناس، والْقِدَّةُ كالقطعة. المفردات للراغب (ص٦٥٧).

وأنا أيقنا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه، فلن نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنا، ولن نستطيع أن نُفْلِت مِن عقابه هربًا إلى السماء، إن أراد بنا سوءًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْقُرْآنَ صَدَّقْنَا بِهِ، وَأَقْرَرْنا أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَمَنْ يُؤمن بربه فلَا يَخَافُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَلَا يُجَازَى عَلَيْهَا وَلَا يخاف إِثْمًا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ غَيْرِهِ، أَوْ سَيِّئَةٍ لم يَعْمَلها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ قَدْ خَضَعُوا للهِ بِالطَّاعَةِ وَمِنَّا الجَائِرُونَ الظالمون[1]، فمن أسلم وخضع لله بالطاعة، فأولئك الذين قصدوا طريق الحق والصواب، واجتهدوا في اختياره؛ فهداهم الله إليه، وأما الجائرون عن طريق الإسلام فكانوا وَقودًا لجهنم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَةِ الحَقِّ وَآمَنُوا لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ ولأنزلنا عليهم ماءًا كثيرًا لنختبرهم فيه[2]،

---

(١) قال الراغب: الْقِسْطُ: هو النّصيب بالعدل كالنّصف والنّصفة. قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس:٤]، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن:٩] والقِسْطُ: هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك جور، والْإِقْسَاطُ: أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف، ولذلك قيل: قَسَطَ الرّجل: إذا جار، وأَقْسَطَ: إذا عدل. قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥] وقال: وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. المفردات (ص٦٧٠).

(٢) أورد الإمام اخْتِلَافَ المفسرين فِي تَأْوِيلِ قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَام القاسطون عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ لَأَعْطَيْنَاهُمْ مَالًا كَثِيرًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ حَتَّى يَرْجِعُوا لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّقَاءِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الضَّلَالَةِ لَأَعْطَيْنَاهُمْ سَعَةً مِنَ الرِّزْقِ لِنَسْتَدْرِجَهُمْ بِهَا =

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ وسماعِ الْقُرْآنِ والعمل به يُدخله اللهُ عَذَابًا شَدِيدًا شَاقًّا(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فلَا تُشْرِكُوا بِهِ فِيهَا شَيْئًا، وَلَكِنْ أَفْرِدُوا لَهُ التَّوْحِيدَ، وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو اللهَ كَادَتِ الْعَرَبُ تَكُونُ عَلَيْهِ جَمِيعًا(٢) فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللهِ(٣).

=وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَةِ الحَقِّ وَآمَنُوا لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ويلاحظ أن هذه الأقوال التي ساقها الإمام -ولم يعلق عليها- مبناها كما يظهر على عود الضمير في قوله: «استقاموا» على «القاسطون» غير أن الإمام ابن عطية ذكر قولًا آخر على اعتبار عود الضمير على «المسلمون» معناه: لو كفر من أسلم من الناس لَأَسْقَيْناهُمْ إملاءً لهم واستدراجًا. ثم مال الإمام ابن عطية إلى قول من قال: وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَةِ الحَقِّ وَآمَنُوا لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، وهذا القول مبني على اعتبار عود الضمير إلى «القاسطون» وأن «الطريقة» هي الإسلام.

وعلق عليه بقوله: وهذا قول أبين لأن استعارة الاستقامة للكفر قلقة. المحرر الوجيز.

(١) «الصَّعَدُ» مَصْدَرُ صَعَدَ، يُقَالُ: صَعَدَ صَعَدًا وَصُعُودًا، فَوُصِفَ بِهِ الْعَذَابُ لِأَنَّهُ (يَصْعَدُ) فَوْقَ طَاقَةِ الْمُعَذَّبِ أَيْ يَعْلُوهُ وَيَغْلِبُهُ فَلَا يُطِيقُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ: مَا تصعدني شيء ما تصعدتني خُطْبَةُ النِّكَاحِ، يُرِيدُ مَا شَقَّ عَلَيَّ وَلَا غَلَبَنِي. تفسير الرازي (٣٠/ ٦٧٣).

(٢) قال ابن فارس: (لَبَدَ) اللَّامُ وَالْبَاءُ وَالدَّالُ كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَكَرُّسِ الشَّيْءِ بَعْضِهِ فَوْقَ بَعْضٍ. مِنْ ذَلِكَ اللِّبْدُ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ. وَتَلَبَّدَتِ الْأَرْضُ، وَلَبَّدَهَا المَطَرُ وَصَارَ النَّاسُ عَلَيْهِ لُبَدًا، إِذَا تَجَمَّعُوا عَلَيْهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩] مقاييس اللغة (٥/ ٢٢٩).

(٣) اخْتَلَفَ المفسرون فِي الَّذِينَ عُنُوا بِقَوْلِهِ: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عُنِيَ بِذَلِكَ الجِنُّ، =

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: قل -أيها الرسول- لهؤلاء الكفار: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك معه في العبادة أحدًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ رَدُّوا عَلَيْكَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ النَّصِيحَةِ: إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا فِي دِينِكُمْ وَلَا فِي دُنْيَاكُمْ، وَلَا نفعًا أنفعكم به، لِأَنَّ الَّذِي يَمْلِكُ ذَلِكَ، اللهُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: قل: إني لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته، ولن أجد من دونه ملجأ[1] أفرُّ إليه مِن عذابه.

=تجمعوا حول رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هَذَا مِنْ قَوْلِ النَّفَرِ مِنَ الجِنِّ لَمَّا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ أَخْبَرُوهُمْ بِمَا رَأَوْا مِنْ طَاعَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ، وَائْتِمَامِهِمْ بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ مِنْ خَبَرِ اللهِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْإِنْسَ وَالجِنَّ تَظَاهَرُوا عَلَيْهِ، لِيُبْطِلُوا الحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا إِتْمَامَهُ.

ورجح الإمام الطبري هذا القول معللًا بقوله: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ اللهِ عَنْ أَنَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لَمَّا قَامَ يَدْعُوهُ كَادَتِ الْعَرَبُ تَكُونُ عَلَيْهِ جَمِيعًا فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللهِ. وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى التَّأْوِيلَاتِ بِالصَّوَابِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ عُقَيْبَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ وَذَلِكَ مِنْ خَبَرِ اللهِ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وَأُخْرَى أَنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَتْبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يَتْبَعُ ذَلِكَ الخَبَرُ عَمَّا لَقِيَ المَأْمُورُ بِأَنْ لَا يَدْعُوَ مَعَ اللهِ أَحَدًا فِي ذَلِكَ، لَا الخَبَرُ عَنْ كَثْرَةِ إِجَابَةِ المَدْعُوِّينَ وَسُرْعَتِهِمْ إِلَى الْإِجَابَةِ. جامع البيان (٣٢/ ٣٤٧).

(١) قال الشيخ الشنقيطي: أَصْلُ «الْمُلْتَحَدِ»: مَكَانُ الِالْتِحَادِ وَهُوَ الِافْتِعَالُ: مِنَ اللَّحْدِ بِمَعْنَى المَيْلِ، وَمِنْهُ اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ؛ لِأَنَّهُ مَيْلٌ فِي الحَفْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [٤١/ ٤٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الْآيَةَ [٧/ ١٨٠]، فَمَعْنَى اللَّحْدِ وَالْإِلْحَادِ فِي ذَلِكَ: المَيْلُ عَنِ الحَقِّ، وَالْمُلْحِدُ المَائِلُ عَنْ دِينِ الحَقِّ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي فَنِّ الصَّرْفِ أَنَّ الْفِعْلَ إِنْ زَادَ مَاضِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ =

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي: قُلْ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ: إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، ولكن أُبَلِّغَكُمْ مِنَ اللهِ مَا أَمَرَنِي بِه وابلغكم رِسَالَاتِهِ الَّتِي أَرْسَلَنِي بِهَا إِلَيْكُمْ؛ فَأَمَّا التوفيق وَالخِذْلَانُ، فَبِيَدِ اللهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَخْذُلُ مَنْ أَرَادَ. وَمَنْ يَعْصِ اللهَ فِيمَا أَمَرَهُ وَنَهَاهُ، وَيُكَذِّبُ بِهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ؛ حتى اذَا عَايَنُوا مَا يَعِدُهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، فَسَيَعْلَمُونَ من أضعف ناصرًا ومعينًا، أَجُنْدُ اللهِ أَمْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مِنْ قَوْمِكَ: مَا أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ. أَمْ يَجْعَلُ لَهُ غَايَةً مَعْلُومَةً تَطُولُ مُدَّتُهَا؟! فهو سبحانه عَالِمُ مَا غَابَ عَنْ أَبْصَارِ خَلْقِهِ، فَلَمْ يَرَوْهُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يُظْهِرُهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ. ويُرْسِلُ مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَرَسًا

=فَمَصْدَرُهُ الْمِيمِيُّ وَاسْمُ مَكَانِهِ وَاسْمُ زَمَانِهِ كُلُّهَا بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ كَمَا هُنَا، فَالْمُلْتَحَدُ بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، وَالْمُرَادُ بِهِ مَكَانُ الِالْتِحَادِ، أَيِ: الْمَكَانُ الَّذِي يَمِيلُ فِيهِ إِلَى مَلْجَأٍ أَوْ مَنْجًى يُنْجِيهِ مِمَّا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ.
وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا مِنْ أَنَّ نَبِيَّهُ ﷺ لَا يَجِدُ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا؛ أَيْ: مَكَانًا يَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَلْجَأُ إِلَيْهِ إِنْ لَمْ يُبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُطِعْهُ، جَاءَ مُبَيَّنًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [٧٢/ ٢١-٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ الْآيَةَ [٦٩/ ٤٤-٤٧]. أضواء البيان (٣/ ٢٦٣).

من الملائكة وَحَفَظَةً يَحْفَظُونَهُ من الشياطين. لِيَعْلَمَ الرَّسُولُ أَنَّ الرُّسُلَ قَبْلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وأن الله حفظهم(١)، وإن الله عَلِمَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُمْ وعَلِمَ عَدَدَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي الَّذِي عُنِيَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عُنِيَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: مَعْنَى الْكَلَامِ: لِيَعْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ قَدْ أَبْلَغَتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ عَنْ رَبِّهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لِيَعْلَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لِيَعْلَمَ مُحَمَّدٌ أَنْ قَدْ بَلَّغَتِ الْمَلَائِكَةُ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، ورجح الإمام الطبري القول الأول معللًا بقوله: وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: لِيَعْلَمَ الرَّسُولُ أَنَّ الرُّسُلَ قَبْلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ مِنْ سَبَبِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ وَذَلِكَ خَبَرٌ عَنِ الرَّسُولِ، فَمَعْلُومٌ بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ لِيَعْلَمَ مِنْ سَبَبِهِ إِذْ كَانَ ذَلِكَ خَبَرًا عَنْهُ. جامع البيان (٢٣/ ٣٥٥).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: يا أيها المتغطي بثيابه[(١)]، قم للصلاة في الليل إلا يسيرًا منه. قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلًا حتى تَصِلَ إلى الثلث، أو زد على النصف حتى تصل إلى الثلثين، واقرأ القرآن بتُؤَدَة وتمهُّلٍ مبيِّنًا الحروف والوقوف[(٢)].

---

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي المَعْنَى الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ التَّزَمُّلِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُتَزَمِّلٌ فِي ثِيَابِهِ، مُتَأَهِّبٌ لِلصَّلَاةِ. وَقَالَ آخَرُونَ: وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُتَزَمِّلٌ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، ورجح الإمام الطبري القول الأول معتلًا بقوله: وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ بتأْوِيلِ ذَلِكَ، مَا قَالَهُ قَتَادَةُ لِأَنَّهُ قَدْ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ فَكَانَ ذَلِكَ بَيَانًا عَنْ أَنَّ وَصْفَهُ بِالتَّزَمُّلِ بِالثِّيَابِ لِلصَّلَاةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَظْهَرُ مَعْنَيَيْهِ. جامع البيان (٢٣/ ٣٥٨).

(٢) قال الإمام الطبري: خَيَّرَهُ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ حِينَ فَرَضَ عَلَيْهِ قِيَامَ اللَّيْلِ بَيْنَ هَذِهِ المَنَازِلِ أَيَّ ذَلِكَ شَاءَ فَعَلَ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِيمَا ذُكِرَ يَقُومُونَ اللَّيْلَ، نَحْوَ قِيَامِهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِيمَا ذُكِرَ حَتَّى خُفِّفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ. ثم ساق الإمام بعض الروايات في بيان ذلك، منها ما أورده عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: كُنْتُ أَشْتَرِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حَصِيرًا، فَكَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَتَسَمَّعَ النَّاسُ بِصَلَاتِهِ، فَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَلَمَّا رَأَى اجْتِمَاعَهُمْ كَرِهَ ذَلِكَ، فَخَشِيَ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِمْ، فَدَخَلَ الْبَيْتَ كَالْمُغْضَبِ، فَجَعَلُوا يَتَنَحْنَحُونَ وَيَتَسَعَّلُونَ حَتَّى خَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، يَعْنِي مِنَ الثَّوَابِ، فَاكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ خَيْرَ الْعَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**». وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ السُّورَةُ. قَالَ: فَكُتِبَتْ عَلَيْهِمْ، وَأُنْزِلَتْ بِمَنْزِلَةِ الْفَرِيضَةِ حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَرْبِطُ الحَبْلَ فَيَتَعَلَّقُ بِهِ؛ فَلَمَّا رَأَى اللهُ مَا يُكَلِّفُونَ مِمَّا يَبْتَغُونَ بِهِ وَجْهَ اللهِ وَرِضَاهُ، وَضَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ﴾ [المزمل:٢٠] إِلَى ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل:٢٠] فَرَدَّهُمْ إِلَى الْفَرِيضَةِ، وَوَضَعَ عَنْهُمُ النَّافِلَةَ، إِلَّا مَا تَطَوَّعُوا بِهِ.(٢٣/ ٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: ثَقِيلٌ في تحمله ثَقِيلٌ الْعَمَلُ بِحُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ(١)، إن قيام الليل بعد العشاء بعد النوم، أجدر لطُمَأْنِينَةِ النفس وأَفْرَغُ للقَلْب وأقرب لتفقه القرآن، إِنَّ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي النَّهَارِ فَرَاغًا طَوِيلًا تَتَّسِعُ بِهِ(٢)، وَتَتَقَلَّبُ فِيهِ. لِحَوَائِجِكَ، فَافْرُغْ لِدِينِكَ باللَّيْلَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: واذكر -أيها النبي- اسم ربك، فادعه به، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في عبادتك(٣)، وتوكل عليه. هو مالك المشرق والمغرب لا معبود بحق إلا هو، فاعتمد عليه، وفوِّض أمورك إليه.

---

(١) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِهِ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا الْعَمَلُ بِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ أَنَّ الْقَوْلَ عَيْنَهُ ثَقِيلٌ مَحْمَلُهُ، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا. ورجح الإمام القول بالعموم فقال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ قَوْلٌ ثَقِيلٌ، فَهُوَ كَمَا وَصَفَهُ بِهِ ثَقِيلٌ مَحْمَلُهُ ثَقِيلٌ الْعَمَلُ بِحُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) قال الراغب: السَّبْحُ: المرّ السّريع في الماء، وفي الهواء، يقال: سَبَحَ سَبْحًا وسِبَاحَةً، واستعير لمرّ النجوم في الفلك نحو: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، ولجري الفرس نحو: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات:٣]، ولسرعة الذّهاب في العمل نحو: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل:٧].

والتَّسْبِيحُ: تنزيه الله تعالى. وأصله: المرّ السّريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشّرّ، فقيل: أبعده الله، وجعل التَّسْبِيحُ عامًّا في العبادات قولًا كان، أو فعلًا، أو نيّة، قال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات:١٤٣]، قيل: من المصلّين، والأولى أن يحمل على ثلاثتها، قال: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ [غافر:٥٥]، ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾. المفردات (ص٣٩٢).

(٣) جاء في (التفسير القيم): «ومصدر تبتل إليه: (تبتُّل) كالتعلُّم والتفهم ولكن جاء على (التفعيل) =

قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ أي: اصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى مَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَوْمِكَ لَكَ، وَعَلَى أَذَاهُمْ، واترك الانتقام منهم.

قوله تعالى: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ أي: فَدَعْنِي يَا مُحَمَّدُ وَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِي أَهْلَ التَّنَعُّمِ(١) وَأَخِّرْهُمْ بِالْعَذَابِ الَّذِي أنذرتهم به قَلِيلاً حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي: إِنَّ عِنْدَنَا لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ قُيُودًا وَنَارًا تُسَعَّرُ. وَطَعَامًا يَغَصُّ بِهِ آكِلُهُ، فَلَا هُوَ نَازِلٌ عَنْ حَلْقِهِ، وَلَا هُوَ خَارِجٌ مِنْهُ. وعذابًا موجعًا.

=مصدر (فعَّل) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكليف والتعلّم والتكثير والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتّل نفسك إلى الله تبتيلًا وتبتل إليه تبتُّلًا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز.
فصيغة «تفعّل» تفيد التدرج مثل تجرّع الماء أي جرعة جرعة، ومثلها تجسّس وتحسّس، أما صيغة «فعّل» كقطع وقطّع، تفيد التكثير.
فجمع سبحانه بين التدرج والتكلف والمبالغة والتكثير، وليعلّمنا أن نبدأ بالتدرج في العبادة شيئًا فشيئًا ثم ندخل في التكثير، ولا ندخل في العبادة الكثيرة مباشرة، لأن التدرج في العبادة يؤدي إلى الكثرة فيها فيما بعد.
والتدرج والتكلف جاء بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد (تبتّل) ثم جاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت (تبتيلًا). أسرار البيان في التعبير القرآني «بتصرف» (ص١١٤). د. فاضل السامرائي.

(١) النَّعْمَةُ بالفتح: التنعمُ، وبالكسرِ: الإنعام، وبالضمِّ: المَسَرَّةُ.
ويلاحظ أن «نَعمة» بالفتح وردت في سورة الدخان ﴿ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ وفي سورة المزمل ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ لم ترد في القرآن كلّه إلا في السوء والشر والعقوبات. نِعمة بالكسر جاءت في مواضع كثيرة في القرآن منها في سورة النحل ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ دائمًا تأتي في الخير في القرآن. الدر المصون (١٠/ ٥٢٣)، لمسات بيانية (ص٦٥٣)، فاضل السامرائي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: إنَّ هذه الْعُقُوبَاتِ تحصل للمشركين، يوم تضطرب الأرض والجبال، وتتزلزل حتى تصير الجبال رَمْلًا سَائِلًا مُتَنَاثِرًا، بعد أن كانت صُلبة جامدة وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: إنا أرسلنا إليكم -يا أهل «مكة»- محمدًا رسولًا شاهدًا عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان، كما أرسلنا موسى رسولًا إلى الطاغية فرعون، فكذَّب فرعون بموسى، ولم يؤمن برسالته، وعصى أمره، فأهلكناه إهلاكًا شديدًا[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: فكيف تَقُون أنفسكم -إن كفرتم- عذاب يوم القيامة الذي يشيب فيه الولدان الصغار[(٢)]؛ مِن شدة هوله وكربه؟ السَّمَاءُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مُتَصَدِّعَةٌ مُتَشَقِّقَةٌ. كان وعد الله واقعًا لا محالة.

---

(١) قال ابن فارس: (وَبَلَ) الْوَاوُ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ فِي شَيْءٍ وَتَجَمُّعٍ. الْوَبْلُ وَالْوَابِلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ. وَيُقَالُ: وَبَلَتِ السَّمَاءُ: أَتَتْ بِوَابِلٍ...

وَوَبَلَةُ الشَّيْءِ: ثِقَلُهُ. وَمِنْهُ يُقَالُ شَيْءٌ وَبِيلٌ أَيْ وَخِيمٌ... وَالْوَبِيلُ: الضَّرْبُ الشَّدِيدُ. وَالْوَبِيلُ: الرَّجُلُ الثَّقِيلُ فِي أَمْرٍ يَتَوَلَّاهُ لَا يُصْلِحُهُ. مقاييس اللغة (٦/ ٨٢).

(٢) قال الإمام الطبري: وَإِنَّمَا تَشِيبُ الْوِلْدَانُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِهِ وَكَرْبِهِ، وساق بإسناده إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا رَبُّنَا الْمَلِكُ آدَمَ، فَيَقُولُ: يَا آدَمُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ آدَمُ: أَيْ رَبِّ لَا عِلْمَ لِي إِلَّا مَا عَلَّمْتَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَيُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ سُودًا مُقَرَّنِينَ، زُرْقًا كَالِحِينَ، فَيَشِيبُ هُنَالِكَ كُلُّ وَلِيدٍ. تفسير الطبري (٢٣/ ٣٨٩).

قال الإمام ابن عطية: قوله تعالى: ﴿ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ يريد صغار الأطفال، وقال قوم هذه حقيقة تشيب رؤوسهم من شدة الهول كما قد ترى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر ونحوه. وقال آخرون =

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا أَمْرُ الْقِيَامَةِ وأهوالها عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ بِهَا وَاتَّعَظَ. فَمَنْ شَاءَ مِنَ الخَلْقِ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ طَرِيقًا بِالْإِيمَانِ به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إن ربك -أيها النبي- يعلم أنك تقوم للتهجد من الليل أقل من ثلثيه حينًا، وتقوم نصفه حينًا، وتقوم ثلثه حينًا آخر، ويقوم معك طائفة من أصحابك. والله وحْدَه هو الذي يقدِّر الليل والنهار، ويعلم مقاديرهما، وما يمضي ويبقى منهما، علم الله أنه لا يمكنكم قيام الليل كله، فخفَّف عليكم، فاقرؤوا في الصلاة بالليل ما تيسر لكم قراءته من القرآن، علم الله أنه سيوجد فيكم مَن يُعجزه المرض عن قيام الليل، ويوجد قوم آخرون يتنقَّلون في الأرض للتجارة والعمل يطلبون من رزق الله الحلال، وقوم آخرون يجاهدون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته ونشر دينه، فاقرؤوا في صلاتكم ما تيسَّر لكم من القرآن، وواظبوا على فرائض الصلاة، وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم، وتصدَّقوا في وجوه البر والإحسان مِن أموالكم؛ ابتغاء وجه الله، وما تفعلوا مِن وجوه البر والخير وعمل الطاعات، تلقَوا أجره وثوابه عند الله يوم القيامة خيرًا مما قدَّمتم في الدنيا، وأعظم منه ثوابًا، واطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، إن الله غفور لكم، رحيم بكم.

=من المتأولين: هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم. وواحد «الولدان» وليد، وواحد الشيب أشيب. المحرر الوجيز (٥/ ٣٨٩).

سورة المدثر (١)

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾(٢) أي: يا أيها المتغطي بثيابه(٣)، قم مِن مضجعك، فحذِّر الناس من عذاب الله، وخُصَّ ربك وحده بالتعظيم والتوحيد

(١) قال الإمام ابن عطية: وهي مكية بإجماع من أهل التأويل. المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٢).

(٢) أورد الإمام الطبري بعض الروايات في بيان أول القرآن نزولًا، يفهم من بعضها أنها الآيات الأُول من سورة العلق، والأخرى يفهم منها إنها آيات سورة المدثر، ولم يعلق على تلك الروايات. واختار الإمام ابن كثير أنها الآيات الأول من سورة العلق، محتجًّا بهذه الرواية: عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ عَنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتَ لِي فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فرفعت رأسي، فإذا الملك الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جالس عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثَثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَرجعت فَقُلْتُ: دثروني فدثروني، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ -إِلَى- ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾.

قال الإمام ابن كثير: هَذَا السِّيَاقُ هُوَ الْمَحْفُوظُ وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ الْوَحْيُ قَبْلَ هَذَا لِقَوْلِهِ: «فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ» وَهُوَ جِبْرِيلُ حِينَ أَتَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ثُمَّ إِنَّهُ حَصَلَ بَعْدَ هَذَا فَتْرَةٌ ثُمَّ نَزَلَ الْمَلَكُ بَعْدَ هَذَا. وَوَجْهُ الْجَمْعِ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ هَذِهِ السُّورَةُ.

قال الامام ابن عطية: واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى فقال جابر بن عبد الله وأبو سلمة والنخعي ومجاهد: هو يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ الآيات. وقال الزهري والجمهور: هو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [العلق:١] وهذا هو الأصح. وحديث صدر كتاب البخاري نص في ذلك. المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٢)، وينظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٧١) العلمية، تفسير الطبري (٢٣/ ٤٠٠). موسوعة التفسير بالمأثور (٢٢/ ٣٧٧).

(٣) أورد الإمام الطبري قولًا آخر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: «يَا أَيُّهَا الْمُتَدَثِّرُ النُّبُوَّةَ وَأَثْقَالَهَا»، ولم يعلق عليه.

والعبادة، وَطَهِّر ثيابك من النجاسات[١]؛ فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن، ودُمْ على هَجْر الأصنام والأوثان وأعمال الشرك كلها، فلا تقربها[٢]، وَلاَ تَمْنُنْ عَلَىَ رَبِّكَ مِنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ عَمَلَكَ الصَّالِحَ[٣]، ولربك فاصبر عَلَى مَا لَقِيتَ فِيهِ مِنَ المكروه في دعوة قومك واصبر على الأوامر والنواهي.

(١) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين فِي تَفسير قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ مِنْ مَكْسَبٍ غَيْرِ طَيِّبٍ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَصْلِحْ عَمَلَكَ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: اغْسِلْهَا بِالْمَاءِ، وَطَهِّرْهَا مِنَ النَّجَاسَةِ، ورجح الإمام هذا القول، فقال: وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ سِيرِينَ وَابْنُ زَيْدٍ فِي ذَلِكَ أَظْهَرُ مَعَانِيهِ. ثم عقب بقوله: والذي قاله ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَابْنُ زَكَرِيَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ أَكْثَرُ السَّلَفِ مِنْ أَنَّهُ عُنِيَ بِهِ: جِسْمَكَ فَطَهِّرْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ مِنْ ذَلِكَ.

واختار الإمام ابن القيم العموم، فقال: الآية تعم هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك،...والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب، هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا. إغاثة اللهفان (١/ ٥٥)، تفسير الطبري (٢٣/ ٤١٠).

(٢) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي مَعْنَى «الرُّجْزِ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْأَصْنَامُ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَالمَعْصِيَةَ وَالْإِثْمَ فَاهْجُرْ. تفسير الطبري (٢٣/ ٤١٢).

(٣) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَا تُعْطِ يَا مُحَمَّدُ عَطِيَّةً لَتُعْطَى أَكْثَرَ مِنْهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَا تَمْنُنْ عَمَلَكَ عَلَى رَبِّكَ تَسْتَكْثِرُ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَضْعُفْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ مِنَ الخَيْرِ. وَوَجَّهُوا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ أَيْ لَا تَضْعُفْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبْلٌ مَنِينٌ: إِذَا كَانَ ضَعِيفًا وَقَالَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ: لَا تَمْنُنْ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى النَّاسِ، تَأْخُذُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَجْرًا، ثم قال الإمام: وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَا تَمْنُنْ عَلَى رَبِّكَ مِنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ عَمَلَكَ الصَّالِحَ. وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ آيَاتٍ تَقَدَّمَ فِيهِنَّ أَمْرُ اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ بِالجِدِّ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَا يَلْقَى مِنَ الْأَذَى فِيهِ، فَهَذِهِ بِأَنْ تَكُونَ مِنْ أَنْوَاعِ تِلْكَ، أَشْبَهُ مِنْهَا بِأَنْ تَكُونَ مِنْ غَيْرِهَا. تفسير الطبري (٢٣/ ٤١٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: فإذا نُفخ في «القرن»[(١)] نفخة البعث والنشور، فذلك الوقت يومئذ شديد على الكافرين، غير سهل أن يخلصوا مما هم فيه من مناقشة الحساب وغيره من الأهوال.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: دعني -أيها الرسول- أنا والذي خلقته في بطن أمه وحيدًا[(٢)] فريدًا لا مال له ولا ولد، وجعلت له مالًا مبسوطًا واسعًا وأولادًا حضورًا معه في «مكة» لا يغيبون عنه، ويسَّرت له سبل العيش تيسيرا ثم يَأْمَلُ وَيَرْجُو أَنْ أَزِيدَهُ مِنَ المَالِ وَالْوَلَدِ عَلَى مَا أَعْطَيْتُهُ لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا يَأْمَلُ وَيَرْجُو إِنَّ هَذَا الَّذِي خَلَقْتُهُ وَحِيدًا كَانَ لِحُجَجِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ مُجَانِبًا لَهُ، سَأُكَلِّفُهُ مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ لَا رَاحَةَ لَهُ مِنْهَا[(٣)].

---

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٨-٩] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسْتَمِعُ مَتَى يُؤْمَرُ يَنْفُخُ فِيهِ**»، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: كَيْفَ نَقُولُ؟ فَقَالَ: «**تَقُولُونَ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**».

(٢) عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: يُعْطُونَكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا تَتَعَرَّضُ لِمَا قِبَلَهُ؛ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَعْلَمُ قَوْمُكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لِمَا قَالَ، وَأَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ؛ قَالَ: فَمَا أَقُولُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ مِنِّي، وَلَا بِقَصِيدِهِ، وَلَا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى. قَالَ: وَاللهِ لَا يَرْضَى قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ؛ فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١]. قَالَ قَتَادَةُ: خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَحِيدًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حَتَّى بَلَغَ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

(٣) قال الإمام الطبري: وَقِيلَ: إِنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ فِي النَّارِ يُكَلَّفُ أَهْلُ النَّارِ صَعُودَهُ». وساق الإمام بإسناده =

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: إنه فكَّر في نفسه، وهيَّأ ما يقوله من الطعن في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن. فَلُعِن، واستحق بذلك الهلاك، كيف أعدَّ في نفسه هذا الطعن؟ ثم لُعِن كذلك، ثم تأمَّل فيما قدَّر وهيَّأ من الطعن في القرآن، ثم قطَّب وجهه، واشتدَّ في العبوس والكُلُوح لَمَّا ضاقت عليه الحيل، ولم يجد مطعنًا يطعن به في القرآن، ثم رجع معرضًا عن الحق، وتعاظم أن يعترف به، فقال عن القرآن: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُنْقل عن الأولين، ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلَّمه محمد منهم، ثم ادَّعى أنه من عند الله.

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: سَأُورِدُهُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ اسْمُهُ سَقَرُ؛ وأَيُّ شَيْءٍ أَدْرَاكَ يَا مُحَمَّدُ ما سَقَرُ. هِيَ نَارٌ لَا تُبْقِي مَنْ فِيهَا حَيًّا وَلَا تترك مَنْ فِيهَا مَيِّتًا، وَلَكِنَّهَا تَحْرِقُهُمْ كُلَّمَا جُدِّدَ خَلْقُهُمْ، مُغَيِّرَةً ومسودة لجلودهم، عليها تِسْعَةَ عَشَرَ مِنَ الخَزَنَةِ[1].

=إلى أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] قَالَ: «هُو جَبَلٌ فِي النَّارِ مِنْ نَارٍ، يُكَلَّفُونَ أَنْ يَصْعَدُوهُ، فَإِذَا وَضَعَ يَدَهُ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ، فَإِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ كَذَلِكَ» تفسير الطبري (٢٣/ ٤٢٦).

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، لما سمع أَبُو جَهْلٍ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ قَالَ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ، أَسْمَعُ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمُ الدَّهْمُ، أَفَيَعْجَزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطُشُوا بِرَجُلٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ فَأُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ أَبَا جَهْلٍ، فَيَأْخُذَهُ بِيَدِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ فَيَقُولَ لَهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٤-٣٥] فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ لَا تَفْعَلُ أَنْتَ وَرَبُّكَ شَيْئًا. فَأَخْزَاهُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وَمَا جَعَلْنَا خَزَنَةَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدد هَؤُلَاءِ الخَزَنَةِ إِلَّا ابتلاء وامتحانا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ. لِيَسْتَيْقِنَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ حَقِيقَةَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الخَبَرِ عَنْ عِدد خَزَنَةِ جَهَنَّمَ، لأنه وَافَقَ ذَلِكَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَلِيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ تَصْدِيقًا إِلَى تَصْدِيقِهِمْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ. وَلَا يَشُكَّ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي حَقِيقَةِ ذَلِكَ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضُ النِّفَاقِ، وَالْكَافِرُونَ بِاللهِ ماذا أراد الله بهذا العدد؟ ومثلما أَضَلَّ اللهُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فَيَخْذُلُهُ عَنْ إِصَابَةِ الحَقِّ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء مِنْهُمْ، فَيُوَفِّقُهُ لِإِصَابَةِ الصَّوَابِ(١). وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ مِنْ كَثْرَتِهِمْ إِلاَّ هُوَ، وَمَا النَّارُ الَّتِي وَصَفْتُهَا إِلَّا تَذْكِرَةً لبَنِي آدَمَ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى

(١) قال الإمام ابن القيم: أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة فى كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يريد الله أن يهديه. وزيادة الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.
فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين، وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦].

ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لَيْسَ الْقَوْلُ كَمَا يَقُولُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ وأَصْحَابَهُ الْمُشْرِكِينَ يغلبون خَزَنَةَ جَهَنَّمَ. وَاللَّيْلِ إِذْ وَلَّى ذَاهِبًا. وَالصُّبْحِ إِذَا أَضَاءَ. إِنَّ جَهَنَّمَ لِإِحْدَى الْأُمُورِ الْعِظَامِ نَذِيرًا لِبَنِي آدَمَ(١) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ يَتَقَدَّمَ بطَاعَةِ اللهِ، أَوْ يَتَأَخَّر بمَعْصِيَةِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: كُلُّ نَفْسٍ مَأْخُوذَةٌ بِعَمَلِهَا محبوسة به إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٢) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا. وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدرى ما يراد به. إغاثة اللهفان (١/ ١٥).

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ وَمَا الْمَوْصُوفُ بِذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِذَلِكَ النَّارَ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ خَبَرٌ مِنَ اللهِ عَنْ نَفْسِهِ، أَنَّهُ نَذِيرٌ لِخَلْقِهِ. فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً نَذِيرًا لِلْبَشَرِ؛ يَعْنِي: إِنْذَارًا لَهُمْ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿نَذِيرًا﴾ بِمَعْنَى إِنْذَارًا لَهُمْ؛ كَمَا قَالَ: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧] بِمَعْنَى إِنْذَارِي؛ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: نُصِبَ ﴿نَذِيرًا﴾ عَلَى الحَالِ مِمَّا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُمْ﴾ وَقَالُوا: مَعْنَى الْكَلَامِ: قُمْ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ فَأَنْذِرْ. ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٤٦).

(٢) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ آخَرُونَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ قال الإمام الطبري: وَإِنَّمَا قَالَ مَنْ قَالَ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: هُمُ الْوِلْدَانُ وَأَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَمَنْ قَالَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذُنُوبٌ، وَقَالُوا: لَمْ يَكُونُوا لِيُسْأَلُوا الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقْتَرِفُوا فِي الدُّنْيَا مَآثِمَ، وَلَوْ كَانُوا اقْتَرَفُوهَا وَعَرَفُوهَا لَمْ يَكُونُوا لِيَسْأَلُوهُمْ عَمَّا سَلَكَهُمْ فِي سَقَرَ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ بَلَغَ التَّكْلِيفَ، وَلَزِمَهُ فَرْضُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَاقَبُ إِلَّا عَلَى الْمَعْصِيَةِ. =

الْمُجْرِمِينَ. أَيُّ شَيْءٍ سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالَ الْمُجْرِمُونَ لَهُمْ: لَمْ نَكُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُصَلِّينَ للهِ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ بُخْلًا بِمَا أعطانا اللهُ، وَمَنْعًا لَهُ مِنْ حَقه وَكُنَّا نَخُوضُ فِي الْبَاطِلِ وَفِيمَا يَكْرَهُهُ اللهُ مَعَ مَنْ يَخُوضُ فِيهِ. وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء، حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ تَذْكِرَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ مُعْرِضِينَ، لَا يَسْتَمِعُونَ لَهَا فَيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا. كأنهم حمر وحشية شديدة النِّفار(٢)،

= وأورد الإمام ابن عطية قولًا ثالثًا في «أصحاب اليمين» أنهم: المسلمون المخلصون وليسوا بمرتهنين».
قال السمين: قوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنها استثناءٌ متصلٌ؛ إذ المرادُ بهم المسلمون الخالِصون الصالحون. والثاني: أنه منقطعٌ؛ إذ المرادُ بهم الأطفالُ أو الملائكةُ. جامع البيان (٢٣/ ٤٥٠)، المحرر الوجيز (٥/ ٣٩٨)، الدر المصون (١٠/ ٥٥٥).

(١) قال الإمام الطبري: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُشَفِّعٌ بَعْضَ خَلْقِهِ فِي بَعْضٍ. وساق الإمام بإسناده إلى عبد الله ابن مسعود: فِي قِصَّةِ ذِكْرِهَا فِي الشَّفَاعَةِ، قَالَ: ثُمَّ تَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَيُشَفِّعُهُمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَكْثَرَ مِمَّا أَخْرَجَ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ النَّارِ؛ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللهِ: يَا أَيُّهَا الْكُفَّارُ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢-٤٦] وَعَقَدَ بِيَدِهِ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، أَلَا مَا يُتْرَكُ فِيهَا أَحَدٌ فِيهِ خَيْرٌ.

(٢) قال الإمام ابن القيم: شَبَّهَهُمْ فِي إعْرَاضِهِمْ وَنُفُورِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ بِحُمُرٍ رَأَتِ الْأَسَدَ أَوِ الرُّمَاةَ فَفَرَّتْ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْقِيَاسِ وَالتَّمْثِيلِ، فَإِنَّ الْقَوْمَ فِي جَهْلِهِمْ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ كَالْحُمُرِ، وَهِيَ لَا تَعْقِلُ شَيْئًا، فَإِذَا سَمِعَتْ صَوْتَ الْأَسَدِ أَوِ الرَّمْيِ نَفَرَتْ مِنْهُ أَشَدَّ النُّفُورِ، وَهَذَا غَايَةُ الذَّمِّ لِهَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ نَفَرُوا

فرَّت من أسد كاسر[١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: بل يطمع كل واحد من هؤلاء المشركين أن يُنزل الله عليه كتابًا من السماء منشورًا، كما أنزل على محمد ﷺ. ليس الأمر كما زعموا، بل الحقيقة أنهم لا يخافون الآخرة، ولا يصدِّقون بالبعث والجزاء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّهُ سِحْرٌ يُؤْثَرُ، وَأَنَّهُ قَوْلُ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهُ تَذْكِرَةٌ مِنَ اللهِ لِخَلْقِهِ، ذَكَّرَهُمْ بِهِ، فَمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِ اللهِ فَاتَّعَظَ فَاسْتَعْمَلَ مَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ. ولا يستطيعون ذلك إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ، وَيُعْطِيهِ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ. هو أَهْلٌ أَنْ تُتَّقَى مَحَارِمُهُ، وأَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ[٢].

عَنِ الهُدَى الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُمْ وَحَيَاتُهُمْ كَنُفُورِ الحُمُرِ عَنْ مَا يُهْلِكُهَا وَيَعْقِرُهَا، وَتَحْتَ الْمُسْتَنْفِرَةِ مَعْنًى أَبْلَغُ مِنِ النَّافِرَةِ؛ فَإِنَّهَا لِشِدَّةِ نُفُورِهَا قَدْ اسْتَنْفَرَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَحَضَّهُ عَلَى النُّفُورِ، فَإِنَّ فِي الِاسْتِفْعَالِ مِنَ الطَّلَبِ قَدْرًا زَائِدًا عَلَى الْفِعْلِ الْمُجَرَّدِ فَكَأَنَّهَا تَوَاصَتْ بِالنُّفُورِ، وَتَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الْفَاءِ، فَالْمَعْنَى أَنَّ الْقَسْوَرَةَ اسْتَنْفَرَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى النُّفُورِ بِبَأْسِهِ وَشِدَّتِهِ. إعلام الموقعين (١/ ١٢٧).

(١) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين فِي مَعْنَى الْقَسْوَرَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الرُّمَاةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي الْقَسْوَرَةِ: هُوَ الْأَسَدُ، وقال آخرون: النَّبْلُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ أَصْوَاتُ الرِّجَالِ.

(٢) قال شيخ الاسلام: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلُ التَّقْوَى وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ لِلتَّقْوَى. بَلْ قَالَ: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فَهُوَ وَحْدَهُ أَهْلٌ أَنْ يُتَّقَى فَيُعْبَدُ دُونَ مَا سِوَاهُ وَلَا يَسْتَحِقُّ غَيْرُهُ أَنْ يُتَّقَى كَمَا قَالَ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وَهُوَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وَفِي غَيْرِ حَدِيثٍ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ مجموع الفتاوى (١١/ ٦٩٠).

سُورَةُ القِيَامَةِ (١)

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: لا(٢)، مَا الأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَنَّ اللهَ لَا يَبْعَثُ عِبَادَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ أَحْيَاءً، أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وأقسم بالنفس

---

(١) ذكر الإمام ابن عطية أن هذه السورة مكية بإجماع من أهل التأويل. (المحرر الوجيز).

(٢) أورد الإمام الطبري اختلاف المفسرين في «لا» في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَا» صِلَةٌ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: بَلْ دَخَلَتْ «لَا» تَوْكِيدًا لِلْكَلَامِ وَقَالَ بَعْضُ نَحْوِيِّي الْكُوفَةِ، «لَا» رَدًّا لِكَلَامٍ قَدْ مَضَى مِنْ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، ثُمَّ ابْتُدِئَ الْقَسَمُ، فَقِيلَ: أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ يَقُولُ: كُلُّ يَمِينٍ قَبْلَهَا رَدٌّ لِكَلَامٍ، فَلَابُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ لَا قَبْلَهَا، لِيُفَرَّقَ بِذَلِكَ بَيْنَ الْيَمِينِ الَّتِي تَكُونُ جَحْدًا، وَالْيَمِينِ الَّتِي تَسْتَأْنِفُ، وَيَقُولُ: أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ مُبْتَدِئًا: وَاللهِ إِنَّ الرَّسُولَ لَحَقٌّ؛ وَإِذَا قُلْتَ: لَا وَاللهِ إِنَّ الرَّسُولَ لَحَقٌّ فَكَأَنَّكَ أَكْذَبْتَ قَوْمًا أَنْكَرُوهُ.

وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي ذَلِكَ، هَلْ هُوَ قَسَمٌ أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ رَبُّنَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يُقْسِمْ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. وَقَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: «وَلَسْتُ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

قال الإمام: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، وَجَعَلَ لَا رَدًّا لِكَلَامٍ قَدْ كَانَ تَقَدَّمَهُ مِنْ قَوْمٍ، وَجَوَابًا لَهُمْ. وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: لَا وَاللهِ، لَا فَعَلْتُ كَذَا، أَنَّهُ يَقْصِدُ بِلَا رَدَّ الْكَلَامِ، وَبِقَوْلِهِ: وَاللهِ، ابْتِدَاءُ يَمِينٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: لَا أُقْسِمُ بِاللهِ لَا فَعَلْتُ كَذَا؛ فَإِذَا كَانَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَعْنَى ذَلِكَ مَا وَصَفْنَا، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ سَائِرُ مَا جَاءَ مِنْ نَظَائِرِهِ جَارِيًا مَجْرَاهُ، مَا لَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنِ الْمَعْرُوفِ بِمَا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ. وَبَعْدُ، فَإِنَّ الجَمِيعَ مِنَ الحُجَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قَسَمٌ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَ حُجَّةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا قَسَمٌ وَالْآخَرَ خَبَرٌ. تفسير الطبري (٢٣/ ٤٦٧).

التي تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتَنْدَمُ عَلَى مَا فَاتَ[١]، أَيَظُنُّ ابْنُ آدَمَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَى جَمْعِ عِظَامِهِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا؟! بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، أَنْ نُسَوِّيَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَنَجْعَلَهَا شَيْئًا وَاحِدًا كَخُفِّ الْبَعِيرِ، أَوْ حَافِرِ الحِمَارِ، وَلَكِنَّهُ فَرَّقَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ يأكل بها ويَأْخُذُ بِهَا، فَحَسَّنَ خَلْقَهُ[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مَا يَجْهَلُ ابْنُ آدَمَ أَنَّ رَبَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَمْضِيَ قُدُمًا فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَا يَتُوبُ مِنْهَا أَبَدًا، سائلًا مستبعدًا قيام الساعة: متى يكون يوم القيامة؟

(١) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الَّتِي تَلُومُ عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهَا تَلُومُ عَلَى مَا فَاتَ وَتَنْدَمُ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ اللَّوَّامَةُ: الْفَاجِرَةُ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ المَذْمُومَةُ، ثم قال الإمام: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَمَّنْ ذَكَرْنَاهَا عَنْهُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ بِهَا أَلْفَاظُ قَائِلِيهَا، فَمُتَقَارِبَاتُ المَعَانِي، وَأَشْبَهُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ أَنَّهَا تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتَنْدَمُ عَلَى مَا فَاتَ. تفسير الطبري (٢٣/ ٤٧٠).

(٢) ذكر الإمام الطبري قولًا واحدًا في معنى قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ خُفًّا أَوْ حَافِرًا، وهو قول الجمهور. والقول الثاني، أي: نقدر على تسوية بنانه كما كانت، وإن صغرت عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام، كان على جمع كبارها أقدر، قال الامام ابن القيم: وكل منهما له ترجيح من وجه فيرجح الثاني أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار وهو إجراء على نسق الكلام واطراده؛ ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيقَ لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت ويرجح القول الأول، ولعله قول جمهور المفسرين حتى أن فيهم من لم يذكر غيره وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو واحد يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة، والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد قد جمعها ساعد واحد؛ فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها؛ ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت. التبيان بتصرف يسير (ص١٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: فإذا تحيَّر البصر ودُهش فزعًا مما رأى من أهوال يوم القيامة، وذهب نور القمر، وجُمِع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء، فلا ضوء لواحد منهما، يقول الإنسان وقتها: أين المهرب من العذاب؟

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: لَيْسَ هُنَاكَ حصن ولا ملجأ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ(١)، ولا يُنَجِّيهِ فِرَارُهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ فإليه المنتهى وإليه استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يُنَبَّأُ الإنسان بِكُلِّ مَا قَدَّمَ أَمَامَهُ مِمَّا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فِي حَيَاتِهِ، وَأَخَّرَ بَعْدَهُ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، وكذلك ما أَخَّرَه بَعْدَهُ مِنْ عَمَلٍ كَانَ عَلَيْهِ فَضَيَّعَهُ، فَلَمْ يَعْمَلْهُ(٢).

---

(١) قال ابن فارس: (وَزَرَ) الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا الْمَلْجَأُ، وَالْآخَرُ الثِّقَلُ فِي الشَّيْءِ. الْأَوَّلُ الْوَزَرُ: الْمَلْجَأُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ...﴾ والْوِزْرُ: حِمْلُ الرَّجُلِ إِذَا بَسَطَ ثَوْبَهُ فَجَعَلَ فِيهِ الْمَتَاعَ وَحَمَلَهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا. وَكَذَا الْوِزْرُ: السِّلَاحُ، وَالْجَمْعُ أَوْزَارٌ. قَالَ الْأَعْشَى: وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا... رِمَاحًا طِوَالًا وَخَيْلًا ذُكُورًا وَالْوَزِيرُ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ الثِّقَلَ عَنْ صَاحِبِهِ. مقاييس اللغة (٦/ ١٠٨).

(٢) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: بِمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ أَمَامَهُ، مِمَّا عَمِلَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ مَمَاتِهِ، وَمَا أَخَّرَ بَعْد مَمَاتِهِ مِنْ سَيِّئَةٍ وَحَسَنَةٍ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: أي: يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ بِمَا قَدَّمَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَأَخَّرَ مِنَ الطَّاعَةِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: يُنَبَّأُ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: بِمَا قَدَّمَ مِنْ طَاعَةٍ ﴿وَأَخَّرَ﴾ مِنْ حُقُوقِ اللهِ الَّتِي ضَيَّعَهَا وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: بِمَا قَدَّمَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِمَّا عَمِلَهُ، وَمَا أَخَّرَ مِمَّا تَرَكَ عَمَلَهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، ورجح الإمام القول بالعموم فقال: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا، أَنَّ ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ اللهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنَبَّأُ بِكُلِّ مَا قَدَّمَ أَمَامَهُ مِمَّا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فِي حَيَاتِهِ، وَأَخَّرَ بَعْدَهُ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ مِمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، كَذَلِكَ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ عَمِلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَأَخَّرَ بَعْدَهُ مِنْ عَمَلٍ كَانَ =

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: بَلِ الإِنْسَانُ حجة عَلَى نَفْسِهِ من نفسه ومن جوارحه، وَلَوِ اعْتَذَرَ بِالْقَوْلِ مِمَّا قَدْ أَتَى مِنَ المَآثِمِ، وَرَكِبَ مِنَ المَعَاصِي، وَجَادَلَ بِالْبَاطِلِ(١).

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: لَا تَكَلَّمْ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مخافة أن تنساه حَتَّى يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ(٢)، فَإِذَا قَضَيْنَا إِلَيْكَ وَحْيَهُ، فَتَكَلَّمْ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي

=عَلَيْهِ فَضَيَّعَهُ، فَلَمْ يَعْمَلْهُ مِمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ، وَلَمْ يُخَصِّصِ اللهُ مِنْ ذَلِكَ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُنَبَّأُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. تفسير الطبري (٢٣/ ٤٩١).

(١) أورد الإمام اختلاف المفسرين في قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: بَلْ لِلْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ شُهُودٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَوِ اعْتَذَرَ بِالْقَوْلِ مِمَّا قَدْ أَتَى مِنَ المَعَاصِي، وَجَادَلَ بِالْبَاطِلِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: بَلْ لِلْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ تَجَرَّدَ من ثيابه وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَوْ أَرْخَى السُّتُورَ وَأَغْلَقَ الْأَبْوَابَ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لَمْ تُقْبَلْ ولو اعتذر.

ورجح الإمام القول الأول معللًا بقوله: لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْبَهُ المَعَانِي بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَخْبَرَ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّ عَلَيْهِ شَاهِدًا مِنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ فَكَانَ الَّذِي هُوَ أَوْلَى أَنْ يُتْبَعَ ذَلِكَ، وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا بِالْبَاطِلِ، وَاعْتَذَرَ بِغَيْرِ الحَقِّ، فَشَهَادَةُ نَفْسِهِ عَلَيْهِ بِهِ أَحَقُّ وَأَوْلَى مِنَ اعْتِذَارِهِ بِالْبَاطِلِ. تفسير الطبري (٢٣/ ٤٩٥).

(٢) أورد الإمام اخْتِلَافَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قِيلَ لِلنبي: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قِيلَ لَهُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ عَجِلَ بِهِ، يُرِيدُ حِفْظَهُ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهُ، فَقِيلَ لَهُ: لَا تَعْجَلْ بِهِ فَإِنَّا سَنَحْفَظُهُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ، أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ مَخَافَةَ نِسْيَانِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ لَكَ، ورجح الإمام القول الأول معتلًا: «بِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ يُنْبِئُ أَنَّهُ إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ بِهِ مُتَعَجِّلًا فِيهِ قَبْلَ جَمْعِهِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ دِرَاسَتَهُ لِلتَّذَكُّرِ إِنَّمَا كَانَتْ تَكُونُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِ جَمْعِ اللهِ لَهُ مَا يَدْرُسُ مِنْ ذَلِكَ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠٠).

صَدْرِكَ وَقِرَاءَتَهُ[١]، فَإِذَا تُلِيَ عَلَيْكَ فَاعْمَلْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَاتَّبِعْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فِيهِ[٢] إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَ مَا فِيهِ مِنْ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَأَحْكَامِهِ لَكَ مُفَصَّلَةً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَنَّكُمْ لَا تُبْعَثُونَ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ، وَلَا تُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ، لَكِنَّ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى التكذيب مَحَبَّتُكُمُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ، وَإِيثَارُكُمْ شَهَوَاتِهَا عَلَى الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: وُجُوهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ مِنَ النَّعِيمِ، وأحسن النعيم نظرها إلى وجه ربها[٣].

---

(١) أورد الإمام الطبري قولًا آخر عَنْ قَتَادَةَ في قوله: ﴿جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: حِفْظَهُ وَتَأْلِيفَهُ، ووجهه بقوله: وَكَأَنَّ قَتَادَةُ وَجَّهَ مَعْنَى الْقُرْآنِ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ قَرَأْتُ هَذِهِ النَّاقَةَ فِي بَطْنِهَا جَنِينًا، إِذَا ضَمَّتْ رَحِمَهَا عَلَى وَلَدٍ، ووجه الإمام القول الذي رجحه بقوله: وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ فَإِنَّمَا وَجَّهَا ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَرَأْتُ أَقْرَأُ قُرْآنًا وَقِرَاءَةً. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠١).

(٢) أورد الإمام اختلاف المفسرين في قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: المعنى: فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَاسْتَمِعْ قُرْآنَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: إِذَا تُلِيَ عَلَيْكَ فَاتَّبِعْ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ: فَإِذَا بَيَّنَّاهُ فَاعْمَلْ بِهِ، ورجح الإمام القول الثاني، فقال: وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: فَإِذَا تُلِيَ عَلَيْكَ فَاعْمَلْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَاتَّبِعْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فِيهِ، لِأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وَدَلَّلْنَا عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وَقِرَاءَتَهُ، فَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠٣).

(٣) هذه الآية واضحة الدلالة في اثبات رؤية المؤمنين لربهم، وهذا ما رجحه الإمام الطبري مبينًا ضعف قول من قال: المعنى: تنتظر الثواب من ربها»، قال الإمام ابن كثير: وَقَدْ ثَبَتَتْ رُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ لله عَزَّوَجَلَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنْعُهَا، لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَة وهما في الصحيحين أنا نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ**». =

= وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذا القمر! فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**». وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ** -قَالَ- يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: **تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا! أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ! قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ**» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثِهِ «إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ» يَعْنِي فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ.

فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ فِي الْعَرَصَاتِ وفي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ...» إلى أن قال: وَهَذَا بِحَمْدِ اللهِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَهُدَاةِ الْأَنَامِ، وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِإِلَى مُفْرَدُ الْآلَاءِ وَهِيَ النِّعَمُ كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ قال: تَنْتَظِرُ الثَّوَابَ مِنْ رَبِّهَا، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنِ مُجَاهِدٍ وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ أَيْضًا فَقَدْ أَبْعَدَ هَذَا الْقَائِلُ النُّجْعَةَ وَأَبْطَلَ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَأَيْنَ هُوَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ما حجب الكفار إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَبْرَارَ يَرَوْنَهُ عَزَّوَجَلَّ. ثُمَّ قَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا دَلَّ عليه سياق الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

قال الإمام ابن القيم: وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جَلَّ جَلَالُهُ فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فإن عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وأن عدى بـ: «في» فمعناه التفكر والاعتبار كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأن عدى بـ: «إلى» فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُتَغَيِّرَةُ الْأَلْوَانِ، مُسْوَدَّةٌ كَالِحَةٌ(١) تَعْلَمُ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهَا دَاهِيَة ومصيبة عظيمة، تقصم فَقَار الظَّهْر(٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يُعَاقَبُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ، بَلْ إِذَا بَلَغَتْ نَفْسُ أَحَدِهِمْ أعالي صدره عِنْدَ مَمَاتِهِ وَحَشْرَجَ بِهَا. وَقَالَ أَهْلُهُ: مَنْ يَرْقِيهِ لِيَشْفِيَهُ مِمَّا قَدْ نَزَلَ بِهِ، وَطَلَبُوا لَهُ الْأَطِبَّاءَ وَالْمُدَاوِينَ(٣)، وَأَيْقَنَ الَّذِي قَدْ نَزَلَ ذَلِكَ بِهِ أَنَّهُ فِرَاقُ الدُّنْيَا وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ،

---

(١) قال الإمام ابن عطية: البسور أشد العبوس، وإنما ذكر تعالى الوجوه؛ لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غم، والمراد أصحاب الوجوه. المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٥).

(٢) قال الإمام ابن عطية: «الفاقرة»: المصيبة التي تكسر فقار الإنسان، قال ابن المسيب: هي قاصمة الظهر، وقال أبو عبيدة: هي من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار. المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٥)، وقال ابن فارس في مقاييسه: الْفَقِيرُ: الْمَكْسُورُ فَقَارِ الظَّهْرِ. وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: مِنْهُ اشْتُقَّ اسْمُ الْفَقِيرِ، وَكَأَنَّهُ مَكْسُورُ فَقَارِ الظَّهْرِ، مِنْ ذِلَّتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ. مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٣).

(٣) أورد الإمام قولًا آخر في قوله: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ أن هَذَا مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ يَصْعَدُ بِهَا، مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ؟ ولم يعلق عليه.
وقال الإمام ابن القيم في تفسير الآية: أي التمسوا له من يرقيه، والرقية آخر الطب، وقيل من يرقى بها ويصعد أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي كرمى يرمي، وعلى الثاني من رقى يرقى كشقى يشقى ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية والقول الأول أظهر لوجوه:
أحدها: أنه ليس كل ميت يقول حاضروه من يرقى بروحه، وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت وأنهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء؛ فإنه قل ما يخلو منه المحتضر.
الثاني: أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله، الثالث: أن فاعل الرقية يمكن =

واتصلت شِدَّةُ كَرْبِ المَوْتِ بِشِدَّةِ هَوْلِ المَطْلَعِ[١]، إلى الله تعالى مساق العباد يوم القيامة: إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي: فَلَمْ يُصَدِّقْ بِكِتَابِ اللهِ، وَلَمْ يُصَلِّ لَهُ صَلَاةً، وَلَكِنَّهُ كَذَّبَ بِكِتَابِ اللهِ، وَتَوَلَّى فَأَدْبَرَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ. ثُمَّ مَضَى إِلَى أَهْلِهِ مُنْصَرِفًا إِلَيْهِمْ، يَتَبَخْتَرُ فِي مِشْيَتِهِ. هلاك له فهلاك[٢]. ثم هلاك له فهلاك[٣].

=العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، ومن إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه...» التبيان (ص١٥٤)، موسوعة التفسير بالمأثور (٢٢/ ٤٨٨).

(١) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي تفسير قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَالْتَفَّتِ شِدَّةُ أَمْرِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: الْتَفَّتْ سَاقَا الْمَيِّتِ إِذَا لُفَّتَا فِي الْكَفَنِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: الْتِفَافُ سَاقَيِ الْمَيِّتِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَالَ آخَرُونَ: عُنِيَ بِذَلِكَ يُبْسُهُمَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ: وَالْتَفَّ بَلَاءٌ بِبَلَاءٍ، ورجح الإمام القول الأول بقوله: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصِّحَّةِ عِنْدِي قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ وَالْتَفَّتْ سَاقُ الدُّنْيَا بِسَاقِ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ شِدَّةُ كَرْبِ الْمَوْتِ بِشِدَّةِ هَوْلِ الْمَطْلَعِ؛ وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ تَأْوِيلُهُ، قَوْلُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ أَمْرٍ اشْتَدَّ: قَدْ شَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقِهِ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٢١).

(٢) عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِيَدِهِ، يَعْنِي بِيَدِ أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَرَبُّكَ فِيَّ شَيْئًا، إِنِّي لَأَعَزُّ مَنْ مَشَى بَيْنَ جَبَلَيْهَا؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: لَا يُعْبَدُ اللهُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، وَضَرَبَ اللهُ عُنُقَهُ، وَقَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ» وعَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَشَيْءٌ قَالَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، أَمْ أَمْرٌ أَمَرَهُ اللهُ بِهِ؟ قَالَ: بَلْ قَالَهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾.

(٣) قال ابن فارس: (وَلِيَ) الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالْيَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ. مِنْ ذَلِكَ الْوَلْيُ: الْقُرْبُ. يُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَيْ قُرْبٍ. وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَيْ يُقَارِبُنِي... وَمِنَ الْبَابِ الْمَوْلَى: الْمُعْتِقُ وَالْمُعْتَقُ، وَالصَّاحِبُ، =

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

أي: أَيَظُنُّ هَذَا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ بِاللهِ أَنْ يُتْرَكَ هَمَلًا، لَا يُؤْمَرَ وَلَا يُنْهَى، أَلَمْ يَكُ مَاءً قَلِيلًا يُصبُّ فِي الأرحام؟ ثم صار قطعة من دم جامد ثُمَّ سَوَّاهُ بَشَرًا سَوِيًّا، فَجَعَلَ مِنْه أَوْلَادًا لَهُ، ذُكُورًا وَإِنَاثًا، أَلَيْسَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى مِنْ مَمَاتِهِمْ[1]؟!

=وَالحَلِيفُ، وَابْنُ الْعَمِّ، وَالنَّاصِرُ، وَالجَارُ؛ كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْوَلْيِ وَهُوَ الْقُرْبُ. وَكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ آخَرَ فَهُوَ وَلِيُّهُ. وَفُلَانٌ أَوْلَى بِكَذَا، أَيْ أَحْرَى بِهِ وَأَجْدَرُ.

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي الشَّتْمِ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ فَحَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ ثَعْلَبًا يَقُولُ: أَوْلَى تَهَدُّدٌ وَوَعِيدٌ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: مَعْنَاهُ قَارَبَهُ مَا يُهْلِكُهُ، أَيْ نَزَلَ بِهِ... قَالَ ثَعْلَبٌ: وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِمَّا قَالَهُ الْأَصْمَعِيُّ فِي أَوْلَى. مقاييس اللغة (٦/ ١٤١).

(١) عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: «سُبْحَانَكَ وَبَلَى»

سورة الإنسان

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أي: قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ وقت طويل من الزمان قبل أن تُنفَخ فيه الروح، لم يكن شيئًا يُذكر، ولا يُعرف له أثر[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: إِنَّا خَلَقْنَا الانسان خليط من ماء

---

(١) قال الإمام الطبري: يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ؛ وَهَلْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَبَرٌ جَحْدٌ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِآخَرَ يُقَرِّرُهُ: هَلْ أَكْرَمْتُكَ؟ وَقَدْ أَكْرَمَهُ؛ أَوْ هَلْ زُرْتُكَ؟ وَقَدْ زَارَهُ؛ وَقَدْ تَكُونُ جَحْدًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِآخَرَ: هَلْ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا أَحَدٌ؟ بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ. وَالْإِنْسَانُ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ هُوَ آدَمُ ﷺ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٢٩). وقال الإمام: وَقَوْلُهُ: ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي قَدْرِ هَذَا الحِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً؛ وَقَالُوا: مَكَثَتْ طِينَةُ آدَمَ مُصَوَّرَةً لَا تُنْفَخُ فِيهَا الرُّوحُ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَذَلِكَ قَدْرُ الحِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ قَالُوا: وَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ لِأَنَّهُ أَتَى عَلَيْهِ وَهُوَ جِسْمٌ مُصَوَّرٌ لَمْ تَنْفُخْ فِيهِ الرُّوحُ أَرْبَعُونَ عَامًا، فَكَانَ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا»، وحاصل هذا القول أن «الإنسان» هو: آدم.

ورجح الإمام ابن عطية أن «الإنسان» اسم جنس، ونسبه لأكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس، قال الإمام ابن عطية: والقوي في هذا أن «الإنسان» اسم جنس وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته. المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٨).

قال الإمام ابن جزي: والإنسان هنا جنس، والحين الذي أتى عليه حين كان معدومًا قبل أن يخلق، وقيل: الإنسان هنا آدم، والحين الذي أتى عليه حين كان طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح، وهذا ضعيف لوجهين أحدهما قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ وهو هنا جنسها باتفاق إذ لا يصح هنا في آدم، والآخر أن مقصد الآية تحقير الإنسان. تفسير ابن جزي (٢/ ٤٣٦).

الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ[١]، نختبره بالتكاليف الشرعية؛ فَجَعَلْنَاهُ ذَا سَمْعٍ يَسْمَعُ بِهِ، وَذَا بَصَرٍ يُبْصِرُ بِهِ[٢]، إِنْعَامًا مِنَ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِذَلِكَ، وَرَأْفَةً مِنْهُ لَهُمْ، وَحُجَّةً لَهُ عَلَيْهِمْ. إنا بيَّنَّا له وعرَّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر؛ ليكون إما مؤمنًا شاكرًا، وإما كفورًا جاحدًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي: إنا أعتدنا للكافرين قيودًا من حديد تُشَدُّ بها أرجلهم، وأغلالًا تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، ونارًا يُحرقون بها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: إن أهل الطاعة والإخلاص الذين يؤدون حق الله، يشربون يوم القيامة مِن كأس فيها خمر

---

(١) أورد الإمام الطبري اخْتِلَافَ المفسرين فِي مَعْنَى «الْأَمْشَاجِ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اخْتِلَاطُ مَاءِ الرَّجُلِ بِمَاءِ الْمَرْأَةِ. وقال آخرون: نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ عِظَامًا. وَقَالَ آخَرُونَ: عُنِيَ بِذَلِكَ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ النُّطْفَةِ: نُطْفَةُ الرَّجُلِ بَيْضَاءُ وَحَمْرَاءُ، وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ حَمْرَاءُ وَخَضْرَاءُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ الْعُرُوقُ الَّتِي تَكُونُ فِي النُّطْفَةِ.

ورجح الإمام القول الأول، فقال: وَأَشْبَهُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نُطْفَةُ الرَّجُلِ وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ وَصَفَ النُّطْفَةَ بِأَنَّهَا أَمْشَاجٌ، وَهِيَ إِذَا انْتَقَلَتْ فَصَارَتْ عَلَقَةً، فَقَدِ اسْتَحَالَتْ عَنْ مَعْنَى النُّطْفَةِ، فَكَيْفَ تَكُونُ نُطْفَةً أَمْشَاجًا وَهِيَ عَلَقَةٌ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ نُطْفَةَ الرَّجُلِ بَيْضَاءُ وَحَمْرَاءُ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ أَنَّهَا سَحْرَاءُ عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ بَيْضَاءُ تَضْرِبُ إِلَى الْحُمْرَةِ، وَإِذَا كَانَتْ لَوْنًا وَاحِدًا لَمْ تَكُنْ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً، وَأَحْسِبُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: هِيَ الْعُرُوقُ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ قَصَدُوا هَذَا الْمَعْنَى. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٣٦).

(٢) قال الإمام الطبري: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُ: الْمَعْنَى: جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا لِنَبْتَلِيَهُ، فَهِيَ مُقَدِّمَةٌ مَعْنَاهَا التَّأْخِيرُ، إِنَّمَا الْمَعْنَى خَلَقْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا لِنَبْتَلِيَهُ، وَلَا وَجْهَ عِنْدِي لِمَا قَالَ يَصِحُّ، وَذَلِكَ أَنَّ الِابْتِلَاءَ إِنَّمَا هُوَ بِصِحَّةِ الْآلَاتِ وَسَلَامَةِ الْعَقْلِ مِنَ الْآفَاتِ، وَإِنْ عُدِمَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ. وَأَمَّا إِخْبَارُهُ إِيَّانَا أَنَّهُ جَعَلَ لَنَا أَسْمَاعًا وَأَبْصَارًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَتَذْكِيرٌ مِنْهُ لَنَا بِنِعَمِهِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَوْضِعِ الشُّكْرِ؛ فَأَمَّا الِابْتِلَاءُ فَبِالْخَلْقِ مَعَ صِحَّةِ الْفِطْرَةِ، وَسَلَامَةِ الْعَقْلِ مِنَ الْآفَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ممزوجة بأحسن أنواع الطيب، وهو ماء الكافور(١).

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: هذا الشراب الممزوج بالكافور هو عين يُرْوَى بِهَا عباد الله، يُجرونها كَيْفَ شَاءُوا، وَحَيْثُ شَاءُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَقُصُورِهِمْ(٢)، هؤلاء كانوا في الدنيا يوفون بما أوجبوا على أنفسهم من طاعة الله، وَيَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ فِي يَوْمٍ كَانَ شَرُّهُ، مُمْتَدًّا طَوِيلًا، يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى رغبتهم فيه ذَوِي الحَاجَةِ والأيتام والمحبوسين من المسلمين وأسارى المشركين(٣) يَقُولُونَ فِي أنفسهم(٤):

---

(١) قال الإمام الطبري: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْكَافُورَ اسْمٌ لِعَيْنِ مَاءٍ فِي الجَنَّةِ... فَأَمَّا عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: الْكَافُورُ صِفَةٌ لِلشَّرَابِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ.

(٢) قال شيخ الاسلام: فِي قَوْلِهِ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾.
فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ: يَشْرَبُ مِنْهَا، لَمْ تَدُلَّ عَلَى الرِّيِّ، فَضَمَّنَ يَشْرَبُ، مَعْنَى يُرْوَى. فَقِيلَ: يَشْرَبُ بِهَا، فَأَفَادَ ذَلِكَ أَنَّهُ شُرْبٌ يَحْصُلُ مَعَهُ الرِّيُّ، وقال: وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ، وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أَيْ: مَعَ نِعَاجِهِ و﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَعَ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنْ التَّضْمِينِ؛ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إلَى نِعَاجِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى يُزِيغُونَك وَيَصُدُّونَك، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ضُمِّنَ: يُرْوَى بِهَا. مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

(٣) اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْأَسِيرِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ فقال بعضهم: إنه المسجون من أهل القبلة، وقال آخرون: إنه الأسير المشرك، ورجح الإمام القول بالعموم، فقال: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُطْعِمُونَ الْأَسِيرَ، وَالْأَسِيرُ الَّذِي قَدْ وَصَفْتُ صِفَتَهُ؛ وَاسْمُ الْأَسِيرِ قَدْ يَشْتَمِلُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ، وَقَدْ عَمَّ الخَبَرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يُطْعِمُونَهُمْ، فَالخَبَرُ عَلَى عُمُومِهِ حَتَّى يَخُصَّهُ مَا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٤٥).

(٤) عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩] قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ، وَلَكِنْ عَلِمَهُ اللهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِيَرْغَبَ فِي ذَلِكَ رَاغِبٌ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٤٦).

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ طَلَبَ رِضَا اللهِ، وَالْقُرْبَةَ إِلَيْهِ. لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ ثَوَابًا وَلَا شُكُورًا[١]. بل نُطْعِمُكُمْ رَجَاءً مِنَّا أَنْ يُؤَمِّنَنَا رَبُّنَا مِنْ عُقُوبَتِهِ فِي يَوْمٍ شَدِيدٍ هَوْلُهُ، عَظِيمٍ أَمْرُهُ، عَبَسَتْ فِيهِ الْوُجُوهُ، وَقَبَضَتْ مَا بَيْنَ أَعْيُنِهَا كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: فَدَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ شَرَّ هذا الْيَوْمِ، وأعطاهم نَضْرَةً فِي وُجُوهِهِمْ، وَسُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ. وَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا صَبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ جنة يتنعمون بها ولباسهم فيها حرير، مُتَّكِئِينَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى السُّرُرِ فِي الحِجَالِ[٣]، لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا فَيُؤْذِيهِمْ حَرُّهَا، وَلا يتأذون بالْبَرْدِ الشَّدِيدِ، وَقَرُبَتْ مِنْهُمْ ظِلَالُ أَشْجَارِهَا وسهل قطف ثَمَرِ شَجَرِهَا، يتناولونه كَيْفَ شَاءُوا قُعُودًا وَقِيَامًا ومُتَّكِئِينَ.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ

---

(١) قال الإمام: وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ وَجْهَانِ مِنَ المَعْنَى؛ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ جَمْعَ الشُّكْرِ، كَمَا الْفُلُوسُ جَمْعُ فَلْسٍ، وَالْكُفُورُ جَمْعُ كَفْرٍ. وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا وَاحِدًا فِي مَعْنَى جَمْعٍ، كَمَا يُقَالُ: قَعَدَ قُعُودًا، وَخَرَجَ خُرُوجًا. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٤٦).

(٢) قال الإمام: وَالْقَمْطَرِيرُ: هُوَ الشَّدِيدُ، يُقَالُ: هُوَ يَوْمٌ قَمْطَرِيرٌ، أَوْ يَوْمٌ قَمَاطِرُ.
وقال الإمام ابن جزي: وصف اليوم بالعبوس مجاز؛ على وجهين: أحدهما أن يوصف اليوم بصفة أهله، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم. وروي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل الدم من عينيه مثل القطران، والآخر يشبّه في شدّته بالأسد العبوس، قَمْطَرِيرًا قال ابن عباس: معناه طويل وقيل: شديد». تفسير ابن جزي (٢/ ٤٣٨).

(٣) ذكر الإمام ابن القيم أن السرير لا يسمى أريكة حتى يجمع ثلاثة أشياء: أحدها السرير، والثانية الحجلة وهي البشخانة التي تعلق فوقه -«أشبه بالناموسية في عصرنا»- والثالث الفراش الذي على السرير، وقال: وفي الصحاح الأريكة سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع الأرائك. حادي الأرواح (ص٢١٣).

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي: ويدور عليهم الخدم بأواني الطعام الفضيَّة، وأكواب الشراب من الزجاج، زجاج من فضة[١]، قدَّرها السقاة على مقدار ما يشتهي الشاربون لا تزيد ولا تنقص[٢]، ويُسْقَى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا مملوءة خمرًا مزجت بالزنجبيل[٣]، يشربون مِن عينٍ في الجنة تسمى سلسبيلا[٤]؛ لسلامة شرابها وسهولة مساغه وطيبه[٥].

---

(١) قال الإمام ابن القيم: فالقوارير هي الزجاج فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة وأنها بصفاء الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي: قوارير الجنة من الفضة؛ فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير... وأما الكأس فقال أبو عبيدة: هو الإناء بما فيه. وقال أبو إسحاق: الكأس: الإناء إذا كان فيه خمر، ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه، والمفسرون فسروا الكأس بالخمر، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل، حتى قال الضحاك كل كأس في القرآن فإنما عني به الخمر، وهذا نظر منهم إلى المعنى والمقصود؛ فإن المقصود ما في الكأس لا الإناء نفسه، وأيضًا فإن من الأسماء ما يكون اسمًا للحال والمحل مجتمعين ومنفردين، كالنهر والكأس، فإن النهر اسم للماء ولمحله معًا، ولكل منهما على انفراده، وكذلك الكأس والقرية؛ ولهذا يجيء لفظ القرية مرادًا به الساكن فقط، والمسكن فقط، والأمران معًا. حادي الارواح (ص١٩٥).

(٢) أورد الإمام قولًا آخر في قوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قُدِّرَتْ لِلْكَفِّ.» ولم يعلق عليه. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٥٩).

(٣) قال الإمام: وَيُسْقَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْأَبْرَارُ فِي الْجَنَّةِ كَأْسًا، وَهِيَ كُلُّ إِنَاءٍ كَانَ فِيهِ شَرَابٌ، فَإِذَا كَانَ فَارِغًا مِنَ الْخَمْرِ لَمْ يُقَلْ لَهُ كَأْسٌ، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَهُ إِنَاءٌ، كَمَا يُقَالُ لِلطَّبَقِ الَّذِي تَهْدِي فِيهِ الْهَدِيَّةَ الْمُهْدَى مَقْصُورًا مَا دَامَتْ عَلَيْهِ الْهَدِيَّةُ فَإِذَا فَرَغَ مِمَّا عَلَيْهِ كَانَ طَبَقًا أَوْ خِوَانًا، وَلَمْ يَكُنْ مُهْدَى.» ثم أورد الإمام اخْتِلَافَ المفسرين في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُمْزَجُ لَهُمْ شَرَابُهُمْ بِالزَّنْجَبِيلِ، وعلى هذا فالعين هي عين الخمر، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الزَّنْجَبِيلُ: اسْمٌ لِلْعَيْنِ الَّتِي مِنْهَا مِزَاجُ شَرَابِ الْأَبْرَارِ.

(٤) أورد الإمام اختلاف المفسرين في «سَلْسَبِيلًا» فقيل هو اسم بمعنى السلس المنقاد الجرية، وقال آخرون: سَلْسَبِيلًا صفة لقوله: ﴿عَيْنًا﴾. و«تسمى» بمعنى: توصف وتشهر، ورجحه الإمام الطبري، وكذا رجحه الإمام ابن عطية فقال: وكونه مصروفًا مما يؤكد كونه صفة للعين لا اسمًا.

(٥) قال الإمام ابن القيم: قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا أن شراب الأبرار يمزج منها لأن أولئك أخلصوا الأعمال =

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ أي: وَيَدور عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ لخدمتهم وِلْدَانٌ لا يموتون(١)، إِذَا رَأَيْتَهم مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُفْتَرِقِينَ، تَحْسَبُهُمْ فِي حُسْنِهِمْ، وَنَقَاءِ بَيَاضِ وُجُوهِهِمْ، وَكَثْرَتِهِمْ، لُؤْلُؤًا كثيرًا مفرقًا(٢).

=كلها لله فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم ونظير هذا وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين: بالكافور في أول السورة والزنجبيل في آخرها فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ما يحدث لهم باجتماع الشرابين ويجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة والزنجبيل في آخرها فإن شرابهم مزج أولًا بالكافور وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل بعده فيعدله والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى وأنهما نوعان لذيذان من الشراب.

أحدهما مزج بكافور والثاني مزج بزنجبيل وأيضًا فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرده في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف والإيثار والصبر والوفاء بجميع الواجبات التي نبه على وفائهم بأضعفها، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها وهو ما أوجبه الله عليهم ولهذا قال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ فإن في الصبر من الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة وجمع لهم بين النضرة والسرور وهذا جمال ظواهرهم وهذا حال بواطنهم كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام وبواطنهم بحقائق الإيمان ونظيره قوله في آخر السورة: ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذه زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ فهذه زينة الباطن المطهر لهم من كل أذى ونقص ونظيره قوله تعالى: لأبيهم آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فضمن له أن لا يصيبه ذل الباطن بالجوع ولا ذل الظاهر بالعري وأن لا يناله حر الباطن بالظمأ ولا حر الظاهر بالضحى ونظير هذا ما عدده على عباده من نعمة أنه أنزل عليهم لباسًا يواري سوآتهم ويزين ظواهرهم ولباسًا آخر يزين بواطنهم وقلوبهم وهو لباس التقوى وأخبر أنه خير اللباسين. حادي الأرواح (ص١٨٦).

(١) قال الإمام ابن القيم: والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدما لهم وغلمانًا كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾. حادي الأرواح (ص٢١٦). يشير إلى أنهم ليسوا من ولدان الدنيا.

(٢) قال الامام ابن القيم: وفي كونه منثورًا فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم. =

❁ **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: وَإِذَا نَظَرْتَ بِبَصَرِكَ، وَرَمَيْتَ بِطَرْفِكَ فِيمَا أَعْطَيْتُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارَ فِي الجَنَّةِ مِنَ الْكَرَامَةِ رَأَيْتَ نَعِيمًا وملكًا عظيمًا ومن ذلك تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ عليهم واسْتِئْذَانهم.

❁ **قوله تعالى:** ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: يعلوهم ويُجَمِّلُ أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ[1]، وَحَلَّاهُمْ رَبُّهُمْ أَسَاوِرَ، مِنْ فِضَّةٍ، وسقاهم شَرَابًا طَهُورًا، وَمِنْ طُهْرِهِ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بَوْلًا نَجِسًا، وَلَكِنَّهُ يَصِيرُ رَشْحًا مِنْ أَبْدَانِهِمْ كَرَشْحِ الْمِسْكِ.

❁ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَعْطَيْنَاكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ كَانَ لَكُمْ ثَوَابًا عَلَى مَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ مِنَ الصَّالِحَاتِ. وكَانَ عَمَلُكُمْ فِيهَا مَشْكُورًا، حَمِدَكُمْ عَلَيْهِ رَبُّكُمْ، وَرَضِيَهُ لَكُمْ.

❁ **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا، ابْتِلَاءً مِنَّا وَاخْتِبَارًا.

❁ **قوله تعالى:** ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي: فاصْبِرْ لِمَا امْتَحَنَكَ بِهِ رَبُّكَ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ، وَالْقِيَامِ بِمَا أَلْزَمَكَ الْقِيَامَ بِهِ فِي تَنْزِيلِهِ الَّذِي أَوْحَاهُ

= **والثانية:** أن اللؤلؤ إذا كان منثورًا ولاسيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد. حادي الأرواح (ص٢١٥).

(١) قال الإمام: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ يَتَأَوَّلُ قَوْلَهُ: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ فَوْقَ حِجَالِهِمُ الْمُثْبَتَةِ عَلَيْهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ الْمَدْفُوعِ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ فَوْقَ حِجَالٍ هُمْ فِيهَا، فَقَدْ علاهم.

إِلَيْكَ. وَلَا تُطِعْ كل فاجر مذنب مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِك ولا جَحُودًا لِنِعَمِ ربه، عابدًا غَيْرَهُ[١]، واذكر ربك بُكْرَةً فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَعَشِيًّا فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ فِي صَلَاتِكَ، فَسَبِّحْهُ أَكْثر اللَّيْلِ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي: إن هؤلاء المشركين يحبون الدنيا، وينشغلون بها، ويتركون خلف ظهورهم العمل للآخرة، ولما فيه نجاتهم في يوم عظيم الشدائد.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: نحن خلقناهم، وأحكمنا خلقهم[٣]، وإذا شئنا أهلكناهم، وجئنا بقوم مطيعين ممتثلين لأوامر ربهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ تَذَكَّرَ وَاتَّعَظَ وَاعْتَبَرَ، فَمَنْ شَاءَ أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) قال الإمام ابن جزي: أو هنا للتنويع، فالمعنى لا تطع النوعين، فاعلًا للإثم ولا كفورًا، وقيل: هي بمعنى الواو أي: جامعًا للوصفين لأن هذه هي حالة الكفار، وروي أن الآية نزلت في أبي جهل، وقيل: أن الآثم عتبة بن ربيعة، والكفور الوليد بن المغيرة، والأحسن أنها على العموم، لأن لفظها عام، وإن كان سبب نزولها خاصًّا. تفسير ابن جزي.

(٢) قال الإمام ابن عطية: أمره تعالى بذكر ربه دائبًا بُكْرَةً وَأَصِيلًا، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول سبحان الله، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس منهم ابن حبيب وغيره. فالبكرة: صلاة الصبح، والأصيل: الظهر والعصر وَمِنَ اللَّيْلِ: المغرب والعشاء.

(٣) ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوينا ربط مفاصلهم بالأعصاب؛ أي: شددنا أوصالهم ومفاصلهم، وربطنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، ليتمكنوا بذلك من القيام والقعود والأخذ والدفع والحركة، والأسر: الربط، ومنه: أسر الرجل إذا أوثق بالرباط. تفسير الروح والريحان بتصرف (٣٠/ ٥٠٨).

اتَّخَذَ إِلَى رِضَا رَبِّهِ طريقًا بِالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَمَا تَشَاءُونَ أمرًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ذَلِكَ لَكُمْ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْكُمْ؛ إن الله كان عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وهم المؤمنون، فيتوبُ عليهم، ويَغْفِرُ لَهُم، وَيُدْخِلُهُم جَنَّتَه، وأما الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وجاوزوا حدودهم، فأَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا مُؤْلِمًا مُوجِعًا، وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ.

سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي: يقسم الله بالرِّيَاحِ الْمُرْسَلَاتِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا(١)، وَبجماعات الرسل والمَلَائِكَةِ الَّتِي أُرْسِلَتْ بِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ(٢)، ويقسم بالرِّيَاحِ الشَّدِيدَاتِ الْهُبُوبِ السِرَّيعَاتِ، ويُقْسِمُ بالرِّيحِ تَنْشُرُ السَّحَابَ، وَالمَطَرِ يَنْشُرُ الْأَرْضَ، وَالمَلَائِكَةِ تَنْشُرُ الْكُتُبَ(٣) ويُقْسِمُ بِكُلِّ فَارِقَةٍ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ،

(١) قال ابن فارس: (عَرَفَ) الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَتَابُعِ الشَّيْءِ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَالْآخَرُ عَلَى السُّكُونِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.
فَالْأَوَّلُ الْعُرْفُ: عُرْفُ الْفَرَسِ. وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَتَابُعِ الشَّعْرِ عَلَيْهِ. وَيُقَالُ: جَاءَتِ الْقَطَا عُرْفًا عُرْفًا، أَيْ بَعْضُهَا خَلْفَ بَعْضٍ.
وَمِنَ الْبَابِ: الْعُرْفَةُ وَجَمْعُهَا عُرَفٌ، وَهِيَ أَرْضٌ مُنْقَادَةٌ مُرْتَفِعَةٌ بَيْنَ سَهْلَتَيْنِ تُنْبِتُ، كَأَنَّهَا عُرْفُ فَرَسٍ. وَمِنَ الشِّعْرِ فِي ذَلِكَ...
وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْمَعْرِفَةُ وَالْعِرْفَانُ. تَقُولُ: عَرَفَ فُلَانٌ فُلَانًا عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً. وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ سُكُونِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ مِنْهُ وَنَبَا عَنْهُ.
وَمِنَ الْبَابِ الْعَرْفُ، وَهِيَ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ. وَهِيَ الْقِيَاسُ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَسْكُنُ إِلَيْهَا. يُقَالُ: مَا أَطْيَبَ عَرْفَهُ! قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، أَيْ طَيَّبَهَا. مقاييس اللغة (٤/ ٢٨١).

(٢) اخْتَلَفَ المفسرون فِي مَعْنَى قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَالرِّيَاحِ الْمُرْسَلَاتِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَالُوا: وَالْمُرْسَلَاتُ: هِيَ الرِّيَاحُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَالمَلَائِكَةِ الَّتِي تُرْسَلُ بِالمعروف، وهو أمر الله ونهيه، ورجح الإمام القول بالعموم، فقال: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَقْسَمَ بِالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، وَقَدْ تُرْسَلُ عُرْفًا المَلَائِكَةُ، وَتُرْسَلُ كَذَلِكَ الرِّيَاحُ، وَلَا دَلَالَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَعْنِيَّ بِذَلِكَ أَحَدُ الحِزْبَيْنِ دُونَ الْآخَرِ؛ وَقَدْ عَمَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِإِقْسَامِهِ بِكُلِّ مَا كَانَتْ صِفَتُهُ مَا وَصَفَ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ صِفَتُهُ كَذَلِكَ، فَدَاخِلٌ فِي قَسَمِهِ ذَلِكَ مَلَكًا أَوْ رِيحًا أَوْ رَسُولًا مِنْ بَنِي آدَمَ مُرْسَلًا. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٢).

(٣) اخْتَلَفَ المفسرون فِي قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرِّيحُ. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ المَطَرُ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ المَلَائِكَةُ الَّتِي تَنْشُرُ الْكُتُبَ. =

ومن أعظمها القرآن والملائكة[١]، ويقسم بالملائكة المُبَلِّغَاتِ وَحْيَ اللهِ رُسُلَهُ، إِعْذَارًا مِنَ اللهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَإِنْذَارًا مِنْهُ لَهُمْ. إِنَّ الَّذِي تُوعَدُونَ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْأُمُورِ والثواب والعقاب لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فَإِذَا النُّجُومُ ذَهَبَ ضِيَاؤُهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا نُورٌ وَلَا ضَوْءٌ، وَإِذَا السَّمَاءُ شُقَّقَتْ وَصُدِعَتْ. وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ مِنْ أَصْلِهَا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا. وَإِذَا الرُّسُلُ أُجِّلَتْ لِلاجْتِمَاعِ لِوَقْتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتِ الرُّسُلُ وَأُخرت؟ أُجِّلَتْ لِيَوْمٍ يَفْصِلُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ خَلْقِهِ الْقَضَاءَ، فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَيَجْزِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَعلمك مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وشدته وهوله؟، هلاك عظيم في ذلك اليوم للمكذبين، ومن ذلك العذاب وادٍ في جهنم يسيل إليه صديد أهل النار.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأُمَمَ الماضِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلِي، وَجَحَدُوا آيَاتِي مِنْ قَوْمِ

= ورجح الإمام القول بالعموم، فقال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَقْسَمَ بِالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، وَلَمْ يُخَصِّصْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ دُونَ شَيْءٍ، فَالرِّيحُ تَنْشُرُ السَّحَابَ، وَالمَطَرُ يَنْشُرُ الْأَرْضَ، وَالمَلَائِكَةُ تَنْشُرُ الْكُتُبَ، وَلَا دَلَالَةَ مِنْ وَجْهٍ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ، عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ، فَذَلِكَ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ نَاشِرًا. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٧).

(١) اخْتَلَفَ المفسرون فِي قَوْلُهُ: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عُنِيَ بِذَلِكَ: المَلَائِكَةُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ ورجح الإمام القول بالعموم، فقال: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: أَقْسَمَ رَبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالْفَارِقَاتِ، وَهِيَ الْفَاصِلَاتُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَمْ يُخَصِّصْ بِذَلِكَ مِنْهُنَّ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، فَذَلِكَ قَسَمٌ بِكُلِّ فَارِقَةٍ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، مَلَكًا كَانَ أَوْ قُرْآنًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ. تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٨).

نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وكذلك من بَعْدَهُمْ، مِمَّنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي الْكُفْرِ، كَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِ لُوطٍ، وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ، وكَمَا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ بِكُفْرِهِمْ، كَذَلِكَ سُنَّتِي فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك عظيم في ذلك اليوم للمكذبين بِأَخْبَارِ اللهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، الجَاحِدِينَ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ. فَجَعَلْنَاها فِي رَحِمٍ اسْتَقَرَّ فِيهَا فَتَمَكَّنَ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ لِخُرُوجِهِ مِنَ الرَّحِمِ عِنْدَ اللهِ. فقدرنا على خلقه وتصويره وإخراجه، فنعم القادرون نحن.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: أَلَمْ نَجْعَلْ أَيُّهَا النَّاسُ الْأَرْضَ لَكُمْ تَكْفِتُ[1] أَحْيَاءَكُمْ فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَنَازِلِ، فَتَضُمُّهُمْ فِيهَا وَتَجْمَعُهُمْ، وَأَمْوَاتَكُمْ فِي بُطُونِهَا فِي الْقُبُورِ، فَيُدْفَنُونَ فِيهَا. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جِبَالًا ثَابِتَاتٍ فِيهَا، شَاهِقَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً عَذْبًا.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكُمْ.

---

(١) قال الإمام ابن عطية: «الكفات»: الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع، تقول كفت الرجل شعره إذا جمعه بخرقة، فالأرض تكفت الأحياء على ظهرها، وتكفت الأموات في بطنها. المحرر الوجيز (٥/ ٤١٩).

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا تُكَذِّبُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ. انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ دُخَانٍ إِذَا تَصَاعَدَ وارتفع تَفَرَّقَ قطعا ثَلَاثًا، إِنَّ جَهَنَّمَ تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر العظيم[1].

كأن شرر جهنم المتطاير منها إبل سود يميل لونها إلى الصُّفْرة[2].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُكَذِّبِينَ هَذَا الْوَعِيدَ الَّذِي تَوَعَّدَ اللهُ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: هذا يوم

---

(١) اختلف المفسرون في قوله: ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مفرد «القصور» وهو القصر العظيم، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ الْغَلِيظُ مِنَ الخَشَبِ، والشجر المقطوع وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ورجح الأمام القول الأول، فقال: وَأَوْلَى التَّأْوِيلَاتِ بِهِ أَنَّهُ الْقَصْرُ مِنَ الْقُصُورِ، وَذَلِكَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ عَلَى صِحَّتِهِ، وَالْعَرَبُ تُشَبِّهُ الْإِبِلَ بِالْقُصُورِ الْمَبْنِيَّةِ. تفسير الطبري (٢٣/ ٦٠٤).

(٢) اختلف المفسرون في قوله: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: كَأَنَّ الشَّرَرَ الَّذِي تَرْمِي بِهِ جَهَنَّمُ كَالْقَصْرِ إبل سُودٌ، وَقَالُوا: الصُّفْرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، بِمَعْنَى السُّودِ. قَالُوا: وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا صُفْرٌ وَهِيَ سُودٌ، لِأَنَّ أَلْوَانَ الْإِبِلِ سُودٌ تَضْرِبُ إِلَى الصُّفْرَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ: حبال السفن، شَبَّهَ بِهَا الشَّرَرَ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: كَأَنَّهُ قِطَعُ النُّحَاسِ.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِالجِمَالَاتِ الصُّفْرِ: الْإِبِلُ السُّودُ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ الجِمَالَاتِ جَمْعُ جِمَالٍ، نَظِيرُ رِجَالٍ وَرِجَالَاتٍ، وَبُيُوتٍ وَبُيُوتَاتٍ. تفسير الطبري (٢٣/ ٦٠٨) ويلاحظ أن قراءة حفص عن عاصم «جمالة» جمع جمل لحقته التاء لتأنيث الجمع فهي كحجر وحجارة.

القيامة الذي لا ينطق فيه المكذبون[١]، ولا يكون لهم إذن في الكلام فيعتذرون؛ لأنه لا عذر لهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بِخَبَرِ اللهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَمَا هُوَ فَاعِلٌ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي يَفْصِلُ اللهُ فِيهِ بِالحَقِّ بَيْنَ عِبَادِهِ، جَمَعْنَاكُمْ ومَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ

---

(١) قال الإمام: قَوْلُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات:٣٥] يُخْبِرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَا أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلَّهُ. فَإِنْ قَالَ: فَهَلْ مِنْ بُرْهَانٍ يُعْلَمُ بِهِ حَقِيقَةُ ذَلِكَ؟ قِيلَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ إِضَافَةُ يَوْمٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥] وَالْعَرَبُ لَا تُضِيفُ الْيَوْمَ إِلَى فَعَلَ وَيَفْعَلُ، إِلَّا إِذَا أَرَادَتِ السَّاعَةَ مِنَ الْيَوْمِ وَالْوَقْتِ مِنْهُ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ: آتِيكَ يَوْمَ يَقْدَمُ فُلَانٌ، وَأَتَيْتُكَ يَوْمَ زَارَكَ أَخُوكَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: أَتَيْتُكَ سَاعَةَ زَارَكَ، أَوْ آتِيكَ سَاعَةَ يَقْدَمُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِتْيَانُهُ إِيَّاهُ الْيَوْمَ كُلَّهُ. تفسير الطبري (٢٣/ ٦١٠).

(٢) قال الامام الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى: هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ.
هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يَعْتَذِرُونَ.
وَقَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ وَيَعْتَذِرُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.
وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ أَوْجُهٍ:
الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقِيَامَةَ مُوَاطِنُ: فَفِي بَعْضِهَا يَنْطِقُونَ وَفِي بَعْضِهَا لَا يَنْطِقُونَ.
الثَّانِي: أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ بِمَا لَهُمْ فِيهِ فَائِدَةٌ وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ كَالْعَدَمِ.
الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَقُولَ اللهُ لَهُمْ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. يَنْقَطِعُ نُطْقُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ». دفع إيهام الاضطراب (ص٢٤٩).

الْأُمَمِ الهَالِكَةِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ لَكُمْ مَا وَعَدَكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تَكْذِيبِكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ حِيلَةٌ تَحْتَالُونَهَا فِي التَّخَلُّصِ مِنْ عِقَابِهِ الْيَوْمَ فَاحْتَالُوا.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا الخَبَرِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِقَابَ اللهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ فِي الدُّنْيَا، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ فِي ظِلَالٍ ظَلِيلَةٍ، لَا يُصِيبُهُمْ أَذَى حَرٍّ وَلَا برد، أَنْهَارٌ تَجْرِي خِلَالَ أَشْجَارِ جَنَّاتِهِمْ. وَفَوَاكِهَ كثيرة يَأْكُلُونَ مِنْهَا كُلَّمَا اشْتَهَوْا لَا يَخَافُونَ ضُرَّهَا، وَلَا عَاقِبَةَ مَكْرُوهِهَا. كُلُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاكِهِ، وَاشْرَبُوا مِنْ هَذِهِ الْعُيُونِ، لَا تَكْدَيرَ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَنْغِيصَ فِيهَا تَأْكُلُونَهُ وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ[1]، هَذَا جَزَاءٌ بِمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، وَتَجْتَهِدُونَ فِيهَا يُقَرِّبُكُمْ مِنْهُ. إِنَّا كَمَا جَزَيْنَا هَؤُلَاءِ الْمُتَّقِينَ بِمَا وَصَفْنَا مِنَ الجَزَاءِ عَلَى طَاعَتِهِمْ، كَذَلِكَ نَجْزِي وَنُثِيبُ أَهْلَ الْإِحْسَانِ فِي طَاعَتِهِمْ إِيَّانَا وَعِبَادَتِهِمْ لَنَا لَا نُضِيعُ فِي الْآخِرَةِ أَجْرَهُمْ.

وَيْلٌ لِلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ خَبَرَ اللهِ عَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ تَكْرِيمِهِ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقِينَ بِمَا أَكْرَمَهُمْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: يَقُولُ تَعَالَى تَهَدُّدًا وَوَعِيدًا مِنْهُ لِلْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ: كُلُوا فِي بَقِيَّةِ آجَالِكُمْ، وَتَمَتَّعُوا بِبَقِيَّةِ أَعْمَارِكُمْ، إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ بِكُفْرِكم وَتَكْذِيبِكُم رُسُلَكم. وسنة الله في المجرمين واحدة، يملي لهم ثم يأخذهم.

---

(١) قال المفسرون: معنى الهنيء: الطيب المَساغ الذي لا يُنغِّصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التامّ الهضم الذي لا يضر ولا يُؤذي. البسيط للواحدي (٦/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبين الَّذِينَ كَذَّبُوا خَبَرَ اللهِ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ عَمَّا هُوَ فَاعِلٌ بِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِوَعِيدِ اللهِ أَهْلِ التَّكْذِيبِ بِهِ: ارْكَعُوا، لَا يَرْكَعُونَ[1].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: وَيْلٌ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ مَا بَلَّغُوا مِنْ أَمْرِ اللهِ إِيَّاهُمْ، وَنَهْيِهِ لَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ هَذَا الْقُرْآنِ، تصدقون، وَإِنَّمَا أَعْلَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِهَا فِي الْقُرْآنِ مَعَ صِحَّةِ حُجَجِهِ، لَمْ يُمْكِنْهُمُ الْإِقْرَارُ بِحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ صَدَّقُوا بِشَيْءٍ مِمَّا غَابَ عَنْهُمْ لِدَلِيلٍ قَامَ عَلَيْهِ لَزِمَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ هَذَا الْقُرْآنِ.

(١) اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الحِينِ الَّذِي يُقَالُ لَهُمْ فِيهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ حِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ قِيلَ ذَلِكَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَقِيلَ: عُنِيَ بِالرُّكُوعِ فِي هَذَا المَوْضِعِ الصَّلَاةُ، ورجح الإمام القول بالعموم، فقال: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَهُ مُخَالِفِينَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، لَا يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وَلَا يَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ. تفسير الطبري (٢٣/ ٦١٣).

المحتويات

المقدمة..... ٥
منهج المختصر..... ٧
سورة الملك..... ٨
سورة القلم..... ١٧
سورة الحاقة..... ٢٩
سورة المعارج..... ٤٠
سورة نوح..... ٤٩
سورة الجن..... ٥٤
سورة المزمل..... ٦٣
سورة المدثر..... ٦٨
سورة القيامة..... ٧٦
سورة الإنسان..... ٨٥
سورة المرسلات..... ٩٤

تم بحمد الله

إخراج فني
+201220482504